العنوان	**ماذا يبقى من طه حسين ؟**
ترجمة العنوان	?What Is Remained from Taha Hussein
المؤلفين	غالي شكري غالي
تاريخ النشر	1974
الناشر	دار المتوسط للنشر والطباعة
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	الادباء والنقاد | التراجم والانساب والاشجار الاسرية | الجغرافيا العامة والاثار والتراجم والتاريخ | الادباء المصريون / علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة العربية (يقسم جغرافيا)
ISBN	N/A
المستخلص	يتناول هذا الكتاب الحديث عن مكانة طه حسين ودوره في الادب والثقافة على الساحة المصرية والعربية . مع ذكر العديد من اعماله وافكاره الادبية والفكرية فهو اول من حصل على الدكتوراة من الجامعات المصرية والدرجات العلمية من الجامعات الاوربية مشيرا الى مدى تأثره بالفكر الاستشراقي ومحاولات التغريب التي استهدفت الامة العربية والاسلامية .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022215-001*

غالي شكري

ماذا يبقى من طه حسين ؟

دار المتوسط للنشر والتوزيع
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب ٥٤٦٠ - تلفون ٢٥٩١٨٠ - بيروت

الطبعة الاولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤

الصديق العزيز

د. [illegible]

مع تحية وتقدير

[illegible]

٢/١٠/٧٤

ماذا يبقى من طه حسين ؟

كلمات في المقدمة

في الخامس من شهر نوفمبر ــ تشرين الثاني ١٩٧٣ كتبت في مجلة «البلاغ» اللبنانية وبزاوية «وجهة نظر» ما يلي :

ذكريات الحوار الضائع

حين قرأت صباح الاحد ٢٨ــ١٠ــ١٩٧٣ نبأ فوز طه حسين بجائزة الامم المتحدة «لابرز المنجزات في حقل حقــوق الانسان» شرعت في كتابة «وجهة نظر» حول هذا الموضوع . ولم اكن قد انتهيت من تسجيل النقاط التي أود اثارتها بهذه المناسبة حتى فاجأني نبأ نعيه من راديو القاهرة . وسقط بين أصابعي القلم .. فمنذ شهر تقريبا ثارت بيني وبين رئيس التحرير مشكلة حقيقية محورها طه حسين . كان الزمن قد أتاح لي في بداية هذا العام ان اتردد طيلة ثلاثة اسابيع كاملة على منزل الدكتور طه حسين « أدير

معه حوارا طمحت فيه ان يكون «وثيقة شاملة» عن حياة الرجل وفكره . وتلاحقت الاحداث ولم ينشر الحوار . وحين جئت الى بيروت لم يكن بحوزتي ، ولكني رويت قصة الحوار للصديق غسان شرارة فقال لي : بل يجب ان تطلبه من القاهـــرة لنشره ملفا . وبالفعل ارسلت في طلب المسودات ، وجاءتني اخيرا . ووضعت الحوار بحرص بالغ في احد ادراج مكتبي ، ثم توالت الاحداث مرة اخرى وجذبتني مع رئيس التحرير الى قضايا واهتمامات بعيدة بعض الشيء عن موضوع طه حسين ، الى ان كان الاسبوع السابق على الحرب مباشرة، حين فاجأني الزميل غسان يطلب مني ان اهيء حوار طه حسين للنشر في العدد التالي للطبع. ورحت باطمئنان افتح الدرج الذي تصورت انني اودعت فيه المسودات ، فلم اجدها . واخذت افتش بهدوء اول الامر، ثم ارتفعت درجة الحرارة تدريجيا وانا اكاد اجن . لا في المنزل ولا في المكتب . ان حياة الغربة تضطر المرء احيانا للتنقل من مكان الى مكان . والحقائب المليئة بالاوراق والكتب ، تفتحها وتغلقها وتحملها عديد من الايدي . ويبدو ان المسودات قد ضاعت اثناء احدى هذه التنقلات . ورحت الى رئيس التحرير انقل اليه النبأ مع اسفي الشديد ، فقد كانت ترتيبات «العدد» من الناحية الصحفية تعتمد على الحوار الضائع . اما انا فقد كان حزني اكبر واكثر غورا في النفس ، لقد كانت الاوراق التائهة قطعة حية من تاريخنا ، ولحظات رائعة من عمري .

ولست اعتقد ان هناك مثقفا واحدا من مثقفي العقود الاربعة الماضية من هذا القرن ، في مصر والوطن العربي عامة ، لم يمتد اليه تأثير طه حسين . لقد كانت وستظل هذه ميزته التي ينفرد بها عن بقية ابناء جيله العظيم .. فربما تجد من يقول انه تأثـــر بالعقاد او سلامة موسى او المازني ، كل على حدة ، ولكنك ستجد ان الجميع قد تأثر بالاضافة الى كاتبه المفضل ، بطه حسين ..

لماذا ؟ لان طه حسين هو الوحيد من ابناء جيله الرائد الذي استطاع ان يجمع في حياته العلمية بين الازهـــر والسوربون ،

فاستطاع أن يحل معضلة المعضلات في بداية عصر نهضتنا ، واعني بها قضية الاصالة والمعاصرة . لقد بقيت قدما طه حسين غائرتين في اعماق الارض التي ولد من صلبها ، ولكن قامته اطلت علــى «العالم» كله من اللاتين واليونان الى الفكر والادب الاوروبيين فيما بين الحربين وما بعد الحرب العالمية الثانية .

واذكر انني ركزت حواري كله معه — وقد دام حوالي اربعين ساعة — حول هاتين النقطتين : قضية التراث والمعاصرة ، وقضية الديمقراطية . وفي القضية الاولى كان فضل طه حسين التاريخي هو انه بكتابه «في الشعر الجاهلي» قد فتح آفاقا للتراث العربي القديم لا تحد . ان مشكلة «الانتحال» لم تكن اكثر من شاهــد ومثل ، ولكن العبرة الحقيقية كانت بالمنهج الذي جرؤ على تطبيقه ايا كانت النتائج شائكة والعواقب وخيمة . ولقد يكون صحيحا ان طه حسين قد تراجع بسحب الكتاب من الاسواق وحذف الفصل الهام من الطبعة الثانية . غير انه يبقى صحيحا بنفس المقدار ان «المنهج» ظل ساري المفعول في مختلف بحوثه النقدية التالية ، وخاصة في كتابه «حديث الاربعاء» . كذلك كان فضل طه حسين التاريخي في الدراسات الاسلامية التي بعث فيها تاريخنا ومعارك نضالنا وابطالنا بعثا جديدا لا يعتمد على الخرافة ولا على التزوير، وبخاصة في كتابيه «على هامش السيرة» و«الفتنة الكبرى» اللذين تلمس فيهما تخوم القوانين العلمية لحركة المجتمع في التاريــخ الاسلامي . كذلك يعود لطه حسين فضله التاريخي في بعث الجانب الادبي والفني للرومان واليونان . ان قسم الكلاسيكيات بالجامعات المصرية مدين لهذا الرجل بتركيز الضوء على اصول الثقافــة الانسانية ، وقد كانت ترجماته للمسرح الاغريقي و«قادة الفكر» في اثينا ، من اهم العناصر التي شاركت في «البحث عن الجذور» بالجامعة . وقد كان — وهو استاذ الادب العربي وعميد كليــة الآداب — الحافز الاكبر في تخريج العلماء المصريين والمتخصصين في اليونانيات .

وكان ذلك كله ثمرة مفهومه عن التراث ، وهو المفهوم الذي يضم الاصالة والمعاصرة في اهاب واحد . ان رعايته الفائقة للدراسات العربية والاسلامية لم تكن تقل عن عنايته الشخصية بتراث الاقدمين لدى غيرنا من الامم . وكانت مجلته «الكاتب المصري» في الاربعينات منارة الفكر الاوروبي الحديث ، فيها تربينا وتعلمنا وقرأنا لاول مرة أدب كافكا وكامي وسارتر .

اما قضية الديمقراطية فهي راية طه حسين التي لم تسقط من بين يديه طيلة حياته . ولعل كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» هو العلامة الباقية من ذلك الجيل باكمله ، انه كتاب الديموقراطية المصرية ، وان كان التعليم هو محور البحث . وحين انضم طه حسين الى وزارة الوفد الاخيرة — قبيل حركة ٢٣ يوليو — وزيرا للمعارف ، حقق شعاره الذي يطالب بان يكون العلم «كالماء والهواء» حقق مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية . وانجز عبد الناصر بقية الحلم بأن حقق مجانية التعليم الجامعي . وستظل مجموعة «المعذبون في الارض» ورواية «شجرة البؤس» من اقوى الدلائل على ان طه حسين لم يكن يفصل بين الديمقراطية والعدل الاجتماعي وربما كانت بصيرته اقرب الى تصويرهما وجهين لعملة واحدة .

وفي ذلك كله ، دفع طه حسين الثمن . ولكنه يستطيع ان يقول «انني انتصرت» فاحد الملامح المشرقة على وجه امتنا يدعى طه حسين .

★★★

ومنذ اسابيع عثرت على اوراقه الضائعة التي تشكل في جملتها وثيقة تاريخية نادرة ، هي آخر ما ادلى به عميد الادب العربي من آراء وأفكار في حياته . والوثيقة فوق انها تغطي

مساحة زمنية كبيرة في تاريخنا الادبي من خلال احد اصدقائه الراسخة ، فانها حوار حي بين الجيل الرائد لعصر نهضتنا وجيلنا.

وقد رأيت ان أضم في هذا الكتاب الصغير الى جانب الحوار «ملفاً» كنت قد نشرته بعد وفاة الرائد الكبير و«خاتمة» من ثلاثة أسئلة موجهة الى مؤرخي ونقاد طه حسين .

وبعد ، فهذه الصفحات القليلة لا تطمح الا في فتح حوار جديد حول مرحلة من أهم مراحل الثقافة العربية الحديثة وقد تجسدت في قلة من الافذاذ ، هي مرحلة انبثاق الشرارة الاولى لفجر نهضتنا المعاصرة .

غالي شكري
بيروت ، مايو — أيار ١٩٧٤

ماذا يبقى من طه حسين ؟

بالرغم من ان رسالته لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية كانت حول «ابي العلاء» ، وبالرغم من انه اعاد كتابتها بعدئذ على نحو جديد يشي باواصر القربى الروحية بين الشاعر والباحث ، فان طه حسين لم يقتحم الساحة الادبية العربية الا عام ١٩٢٦ حين اصدر مجموعة المحاضرات التي كان يلقيها على تلامذته في الجامعة تحت عنوان «في الشعر الجاهلي» بين دفتي كتاب . كانت هذه ثورته الاولى التي خرجت من الاطار الاكاديمي المحض الى الشارع والصحافة والبرلمان وابهاء المحاكم .

من المفيد القول بأن هذه الثورة لم تكن اكثر من «علامــــة» ضمن علامات اخرى بارزة على جبين تلك المرحلة التي تواضعنا على تسميتها بفجر النهضة . كان العقاد في كتابه «الديوان» قد اتخذ من شوقي ــ عميد المدرسة الكلاسيكية ــ هدفا لثورته الاولـــى عام ١٩٢١ ؛ وكان محمد حسين هيكل في روايته «زينب» بداية الثورة الفنية على اسلوب المقامة التقليــــدي عام ١٩١٤ ؛ وكان عبد الرحمن شكري والمازني بداية الثورة الشعرية بعد ان حرث لهما خليل مطران الارض حرثا جيدا ؛ وكان سلامة موسى فــي كتابه عن «الاشتراكية» عام ١٩١٢ مزيجا بين الفابية والراديكالية ثائرا على البنية الراسمالية للمجتمع المصري ؛ وكان الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الاسلام واصول الحكم» ثائرا ــ في اطار الدين ــ على فكرة الوراثة في دولة الخلافة كنموذج ؛ والدولــة الملكية ايا كانت في التطبيق .

وكان هؤلاء جميعا هم ابناء الطبقة المتوسطة البازغة في حركة التحرر الاجتماعي لمصر ابان العقدين الاول والثاني من هذا القرن. ومن اللافت للنظر ان غالبية هؤلاء «الاعلام» قد اضطهــــدوا واضطهدت كتاباتهم بصورة او باخرى ؛ فقد صودرت كتب طــه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق ؛ وقدم الاول والثالث للمحاكمة ، اما هيكل فقد احتاط للامر بأن نشر «زينب» فــي طبعتها الاولى بتوقيع مستعار هو «مصري فلاح» ، واما العقاد فعانى الاهوال من شاعر الامير الذي شن عليه حملة شعواء فــي دوائر السلطة والصحافة .

هذه الموجة العتيقة التي شهدت مصر مدها وجزرها طيلــة الربع الاول من القرن العشرين ؛ كانت تجسيدا فكريــا لتغيرات الارض الاجتماعية ؛ وتصادم علاقات الانتاج الجديدة بالقيـــم

السائدة . وقد اتسم الموقف العام من طه حسين وعلي عبد الرازق — على وجه الخصوص — بالعنف ؛ لانهما من ابناء الازهر ، اي انهما ينتميان على نحو ما الى ما يتصوره البعض «قيما سائدة» . كان خطر علي عبد الرازق انه يتوجه مباشرة الى «راس الحكم في البلاد والاساس التشريعي للنظام» ؛ فالكتاب في خاتمة المطاف ضد الملكية . لذلك فصلوه من هيئة كبار العلماء وصادروا «الاسلام واصول الحكم» نهائيا .

وطه حسين كان يتوجه الى ما هو اخطر من النظام السياسي؛ كان يقتحم النظام الفكري للمجتمع والسلطة على السواء ؛ لذلك فهو بالرغم من انه لم يتعرض لشخص محدد — كالذات الملكيــة مثلا — او حتى مبدأ سياسيا مباشرا ؛ الا انه قد طورد ولوحــق بصورة غير مسبوقة في ذلك الوقت . ولا يكفي القول بان طــه حسين قد طبق منهج الشك عند ديكارت على الشعر الجاهلي ، ولا يكفي ايضا انه رأى في بعض هذا الشعر «انتحالا» دفعه لان يرجح بانشاء هذا الشعر في صدر الاســـــلام . وانما ينبغي ، بالاضافة الى ذلك كله ، القول بان طه حسين كحلقة في سلسلة الفكر البرجوازي الجديد قد دعم الرؤية الليبرالية الوافدة على الثقافة بشاهد خطير يمس قدس الاقداس عند الفكر السلفي وهو اللغة . لقد حاول طه حسين — مثلا — ليدلل على صحة الفرض الذي شرع في اثباته ؛ ان يستشهد بالقرآن لغة واسلوبا على مدى القرابة التي تصل بين هذا «البيان» الاسلامي ، والنسيج البلاغي للشعر الذي استقر في التاريخ والوجدان المتوارث بانه يمت الى العصر الجاهلي .. بينما صوره واوزانه واخيلته ؛ بل واشبــــاح معتقداته ؛ تمت الى صدر الاسلام .

وكانت المشكلة من الناحية الفكرية اعم بكثير مما اراد البعض

ان يسبغه عليها من الناحية الدينية .. ان مجموعة المقدمات والنتائج التي توصل اليها طه حسين لا تعني مطلقا انه «ملحد» ، بل هي بعيدة كل البعد عن ان تجعل منه مفكرا «ماديا» بالمعنى الصحيح لهذا التعبير ، سواء في فلسفات القرن الثامن عشر وما سمي بعصر التنوير ، او في فلسفات القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الماركسية الى البراجماتية والوضعية والتجريبية . ان طه حسين في بحثه الرائد يظل مفكرا مثاليا بالمعنى الفلسفي كديكارت نفسه . وهو لم يتخذ من ديكارت ولا من أوجست كومت سوى بعض العناصر المنهجية غير المترابطة عضويا في نظام فلسفي متسق . اي انه بلغة هذه الايام قد استلهم «الشعار» اكثر من استلهامه لاسس البناء المنهجي وطوابقه الشاهقة . اخذ عن هذين الفيلسوفين الكبيرين ، شكهما في المسلمات واعتمادهما على العقل . وقد كان «العلم» وقوانينه المكتشفة حديثا آنذاك ، بمثابة الدعامة النظرية التي القت افكار ديكارت وأوجست كومت ، كليهما — رغم تباين فلسفتيهما — بعديد من عناصر الصياغة المنهجية لرؤيتهما الوجود والطبيعة والمجتمع في العصر البرجوازي الاوروبي .

ولم يكن هذا حال طه حسين ، ولا حال زملائه من جيل النهضة في تاريخنا الحديث . كانت البرجوازية المصرية الناشئة من الضعف والوهن — فقد بدأت حياتها اصلا بالقطاع التجاري — ومن التخلف ايضا ، بسبب انضمام شرائح اليها من القطاع الزراعي ، بحيث انها لم تكن لتستطيع في مواجهة الفكر الاقطاعي الراسخ الا ان تأخذ من البرجوازيات الاوروبية اسلحتها القديمة التي واجهت بها المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية والمؤسسة الاجتماعية .

ولكن هذه الاسلحة التي كانت ثمرة ابداع اجتماعي مغاير

لظروفنا ـ التي لم تصاحبها مثلا كشوف علمية وتطبيقات صناعية لهذه الكشوف والنتقال بالمهن الحرفية الى مستوى أرقى للعلاقات الاجتماعية ـ هذه الاسلحة ما كان يمكن «استيرادها» كما هي بلا زيادة او نقصان . وانما كان ابداع جيل الرواد انهم نقلوا وتأثروا بما يلبي الاحتياجات الموضوعية للواقع المصري في اتجاه التخلي عن المجتمع شبه الاقطاعي المستعمر ، الى المجتمع الوطنـــي الديمقراطي المستقل . هكذا كانت الآداب الرومانسية الاوروبية والنظرات الاشتراكية التدريجية البرلمانية وافكار وقيم الاصلاح الديني ، هي الواجهة الليبرالية التي رفعتها الانتلجنسيا المصرية في ذلك الزمن .

ومن هذه الزاوية ، كان «المنهج» الذي قدمه طه حسين في تضاعيف كتابه «في الشعر الجاهلي» هو ناقوس الخطر الـــذي «بلور» معالم الثورة الاولى في فكرنا الحديث .. فاذا كان العقاد هز عرش الكلاسيكية الشعرية بمعول هازلت ، ناقد الرومانسية الانجليزية العظيـــم ، واذا كان سلامة موسى قد هـــز عرش الثيوقراطية العربية بمعاول برنارد شو وولز ونيتشه وماركس ، فان ثورة العقاد ظلت محصورة في دائرة الشعر امـــدا طويلا ، وثورة سلامة موسى ظلت لتطرفها ابعد ما تكون عن دائرة الاهتمام الواسع ، اما طه حسين ، فرغم الطابع الاكاديمي لكتاب «فـــي الشعر الجاهلي» فانه دخل عرين الاسد كما يقال ، دخله راكبـا حصان طروادة كما يقال ايضا .

ذلك ان القضية خرجت على ألفور من اطار الشعر ، فضلا من الشعر الجاهلي ، الى اقدس المقدسات عند العرب . واصبح «المنهج» بما يشتمل عليه من ادوات البحث العلمي وفروضـــه ووسائل البرهنة عليها ، هو الشغل الشاغل عنـــد الذين بادروا

بالهجوم المضاد «تحت راية القرآن» ـ وهو عنوان احـــد الكتب السبعة التي ردت عليه ـ وهو ايضا اوسع الابواب لاستمالـــة الجماهير ضد الفكر الحر . ذلك أن تشكك طه حسين في وجود ابراهيم واسماعيل وانهما شاركا في بناء الكعبة ، وقوله ان العرب فهموا القرآن لانه حدثهم عن واقعهم «ولولا ذلك لما حفل به احد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالاموال والحياة» وغير هذه العبارات التي أوردهـــا في كتابه ، ليست دليلا على كفره وإلحاده وزندقته وهرطقته الى آخر قائمة الاتهام التي رفعها المشايخ و«العلماء» والاساتذة محمد فريـــد وجدي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد الخضري ومحمد الخضر حسين ومحمد أحمد عرفة ومحمد احمد الغمراوي ومحمد لطفي جمعة ، وغيرهم وغيرهم ممن شنوا حملة الجهل و«هدر الدماء» .

ان هذه الملاحظات «الدينية» العابرة في كتاب طه حسين ، لم تكن اكثر من «تفاصيل النتائج الثانوية» التي انتهى اليها . وكان تركيز الضوء عليها من جانب الشيوخ والسلفيين استثارا رجعيا متطرفا لمشاعر المواطنين العاديين الذين كتب احدهم «شكوى» الى الازهر ، قام المسؤولون بتحويلها الى النيابة التي باشرت بالتحقيق في الدعوى ، وهم الذين كانوا وراء ضجة البرلمان الذي قـــدم استجوابا لوزير المعارف يتهم فيه طه حسين «بإفساد الشباب» وكأنه سقراط الجديد .

ومن يطلع على مضبطة مجلس النـــواب المصري عام ١٩٢٦ ويتابع الصحافة المصرية في تلك الفترة ويقرأ محضر التحقيق الذي نشر مؤخرا ، لا يعجب فحسب بشجاعة طه حسين وقوة الحجة لديه ، وانما يضع كلتا يديه على حقيقة تاريخية بالغة الاهمية ، وهي ان «الليبرالية المصرية» قد انتصرت رغم مصادرة الكتـــاب

ومؤلفه . الا ان طه حسين نفسه — كما قال لي في الحوار الضائع — كان حزينا ، شعر بالالم كما لم يشعر به من قبل ، لان الضجة التي اثيرت حول الكتاب تذرعت بأسباب هامشية غطت على جوهره الحقيقي ، على «المنهج» الذي يهدف الى ترسيخه . وقد حزن طه حسين ايضا لان البعض ظنه — بحسن نية — قد تراجع ؛ والبعض الاخر استغل نغمة «التراجع» عن سوء نية لينسف موقف طه حسين من اساسه . والحقيقة هي ان موقفه اقرب الى المناورة حتى ولو بدا في ظاهرها التراجع . لقد حذف طه حسين من الكتاب فصلا واحدا واضاف اليه اربعة فصول تدعم المنهج وتؤصله وان خلت الطبعة الثانية — ١٩٢٧ — من شواهد القرآن والانبياء . وبقي الكتاب في جوهره يؤدي رسالته الفكرية جيلا بعد جيل ، وبقي منهجه من الدعامات النظرية للنقد الفكري والادبي التي تقول :

ان ما وصلنا من القدماء ليس منزها عن اعادة النظر والبحث والتمحيص ، ويجب ان نلتقي به بعيدا عن اليقين والايمان وقريبا من الانكار والشك . ذلك ان المحيط البيئي والتاريخي الذي انمر عمل القدماء لم يكن محيطا هلاميا غير عابىء بالضغوط الاقتصادية والمناورات السياسية والنزوات العسكرية والاهواء الشخصية . وانما هذه كلها تتداخل فيما بينها وتشارك بهذا النصيب او ذاك في «خلق» عمل القدماء الذي هو في النهاية ليس خلقا من العدم . ان هذه النقطة تعني في التطبيق عند طه حسين : انه لا بد من النظر الى العمل الادبي القادم من السلف في اطاره الاجتماعي — التاريخي ، من ناحية ، وفي اطاره الوضعي من ناحية اخرى . اي انه قدم في واقع الامر منهجا مركبا من عنصرين لا يزال بعض الباحثين الى اليوم يعتقدون بتناقضهما ، وهما : النقد التاريخي والنقد الجمالي ، فرؤية العمل الفني في السياق الاجتماعي ،

يجعل منه ثمرة للبيئة والعصر . وهو — اي طه حسين — متأثر في ذلك بلا ادنى ريب ، بالفكر الادبي الفرنسي حول هذا الموضوع، خاصة عند تين وسانت بيف . كذلك رؤية العمل الفني من داخله — كما هو — من حيث تركيبه اللغوي وصوره واخيلته وموسيقاه. وفي ظني ان طه حسين متأثر في ذلك بالنقد العربي القديم ، لا بما يسمى في امريكا وانجلترا بالنقد الجديد . لقد تمكن طه حسين باقتدار من ان يمزج هذين العنصرين المنهجيين المتنافرين . ولعل هذا ما يمنح منهجه معنى الاصالة لا بالعودة الى القديم ، ولكن بتلبية الاحتياجات الموضوعية للواقع في اتجاه التقدم . ان هذا المزج في ذاته قد تم على ضوء استكشاف عميق لتاريخنا الادبي جنبا الى جنب مع ادراك عميق لحاضرنا الذي ينشد النهضة . وحين اختار طه حسين من الغرب هذا دون ذلك من مناهج الفكر والنقد ، وحين اختار بعض ما في تراثنا من نظرات نقدية نافذة، كان في واقع الامر «يبدع» منهجا جديدا من عناصر عديدة ، لا يهمه أن بعضها قد نبت في ارض غيرنا وان بعضها يمت الينا بصلة قرابة بعيدة ، وانما كان يهمه واقعنا واحتياجاته للتقدم .

واذا كان الكثيرون — هنا وهناك — يرون ان جهد طه حسين في هذا الصدد ، هو جهد الاختيار والتجميع والنقل ، فهم مخطئون .. لان استبصار واقعنا الاجتماعي والثقافي كان المهمة الاولى التي انجزها ، وهكذا نجح في تشخيص الداء والدواء . اما حصوله على الدواء ، فلم يتم بوسائل النقل الحرفي من اوروبا او من التراث العربي ، وانما بوسائل البحث عن هذه الجزئية او التفصيلة التي يمكن لقائها مع جزئية اخرى وتفصيلة مغايرة ان تصوغ «تركيبا» جديدا يتجاوز العناصر الاولية شكلا ومضمونا ، وبحيث يستطيع هذا التركيب الجديد ان يلتقي مع الواقع الخام لقاء التفاعل — بتبادل التأثير والتأثر — الذي يؤدي الى تغيير هذا

الواقع ودفعه الى الامام اوالمقصود هنا الواقع الاجتماعي والواقع الادبي معا . ان عملية التفاعل هذه تضيف الى «التركيب الجديد» عناصر جديدة لم تكن بين المواد الاولية التي شاركت في صنعه عند البدء .

وهكذا ، فان طه حسين حين اخذ فكرة «البيئة والعصر» من النقد الفرنسي ، لم يأخذ سوى المعنى العام الذي يرى في الحروب والصراعات السياسية الخفية والظاهرة واساليب الحياة المادية وظروفها الناخية اطارا اجتماعيا وتاريخيا شارك في صنع الاديب والادب . اما التفاصيل اليومية الصغيرة ودقائق فعل الطبيعــــة وردود الافعال البشرية التي احتفل بها النقد الفرنسي ، فلم يكن يهم طه حسين اللجوء اليها . وهكذا ايضا ، حين اخذ عن النقد العربي القديم بعض نظراته الجمالية ، فهو لم يتحول الى النقد البلاغي المحض ، وانما الى ما يسميه الاوروبيون بالنقد الوضعي تارة والوصفي التحليلي تارة اخرى . وهو ذلك النقد الـــذي يعتمد على الذوق والبصيرة في رؤية العمل الفني من داخله، حيث المعجم اللغوي للشاعر وصوره البيانية وادواته في تركيب الخيال الشعري . وعظمة طه حسين الحقيقية ، هي انه في ذلك الوقت الباكر ، امد جسورا غير مفتعلة بين هذين الاتجاهين في النقد ، ولعل هذا الانجاز الرائد لا زال «طموحا» لدى الكثيرين في عصرنا، اي في مرحلة تاريخية جديدة تجاوزت الكثير من معوقات وميسرات عصر طه حسين ، لمزج ما يسمى بالنقد الفكري او الايديولوجي بما يسمى النقد الفني الخالص او النقد الجمالي المحض .

وسوف يبقى في تاريخنا ان طه حسين هو الذي ارتاد هذا الطريق الى «نظرية النقد» الخاصة بنا ، وسيظل ابداعــــه منارة كاشفة لكل من يحاول استكمال الشوط . وفي الحالين معا ، فان

قيمة عمل طه حسين ليست قيمة تاريخية فحسب ، وانما هي قيمة دائمة دوام البذرة في صلب النبات المزدهر ، مهما تعمقت جذوره باطن الارض ، ومهما ناطحت فروعه اعالي السحاب . ان طه حسين لم يكتف بوضع الاسس النظرية كما هو الحال اصلا في كتابه «في الشعر الجاهلي» ، وانما هو قد داوم تطبيقها على الشعر العربي في مختلف عصوره ، تشهد بذلك دراساته التالية ، وخاصة «حديث الاربعاء» و«حديث الشعر والنثر» .

ولم يكن اسهام طه حسين مشاركة في البحث من نظرية النقد الادبي فقط ، وانما كان ايضا وبنفس المقدار اسهاما ايجابيا فعالا في البحث عن نظرية التراث . ومنذ وقت مبكر تنبه طه حسين، ضمن جيل الرواد كما أسلفت ، الى اهمية الثقافة الاوروبية . ولكن طه حسين ، ربما من بين ابناء جيله جميعا ، قد تفرد بنظرة خاصة الى الثقافة . كان ينظر — مع هذا الجيل — الى مصر فيراها أقرب الى أوروبا منها الى آسيا ، لهذا لم يشذ عن الرؤيا الحضارية لرواد عصر النهضة في مصر ، والتي يمكن اختزالها بفكرتين رئيسيتين هما: ان مصر بتاريخها الحضاري العريق تشكل وحدة قومية مستقلة عن العرب والمسلمين وان لم تكن بعيدة عنهما ، فالدين وشيجة روحية عميقة ولكن ليس رابطة قومية . والفكرة الثانية هي انه منذ فتوحات نابليون ينبغي أن نتجه الى أوروبا ، التي يشكل البحر الابيض المتوسط همزة وصل بينها وبين مصر وليس حاجزا مائيا . هاتان الفكرتان تطالع ملامحهما عند العقاد ايضا في كتابه عن «سعد زغلول» ، وعند الدكتور هيكل في كتابه «ثورة الادب» ، وعند سلامة موسى في كتابه «اليوم والغد» ، وعند طه حسين في كتابه الهام «مستقبل الثقافة في مصر» . وقد كانت هذه الرؤيا بمثابة العمود الفقري للوطنية المصرية في نضالها المزدوج ضد السلطنة العثمانية والاحتلال

البريطاني . ولم تظهر قط ، كنقيض للقومية العربية . والعروبة في ذلك الزمان اختلطت بالدين اختلاطا شديـــــدا ، وقد كانت الليبرالية المصرية بطبيعتها ضد «الجامعة الاسلامية» . وكان طه حسين ــ كسلامة موسى وهيكل ــ من الذين تأثروا بشعار أحمد لطفي السيد «مصر للمصريين» حتى ولو كان هذا الشعار يعني لدى صاحبه ــ في التطبيق السياسي ــ معنى مغايرا لدى هؤلاء المثقفين الجدد . مصر للمصريين وليست للاتراك او الانجليز ، هذا ما فهمه الشباب حينذاك . واكبوا في وقت واحد على تاريخ مصر القديم بصورة رومانسية في الاغلب ، كنوع من الرد التاريخي على التحدي الراهن . ثم اكبوا على اوروبا في نفس الوقت حتى لا يتخلفوا عن روح العصر اذا شاءوا حقا لمصر الجديدة ان تسترد امجادها القديمة .

في ذلك كله لم يختلف طه حسين عن أقرانه . ولكنه انفرد من بينهم جميعا ازاء الموقف من الثقافة الاوروبية وحضارة الغرب عامة ، في انه اولى اهتمامه البالغ للجذور . ان عصر «النهضة» في اوروبا هو عصر البعث للكلاسيكيات اليونانية واللاتينية . وإذن، فاتجاهنا نحو اوروبا لا ينبغي محاصرته في حدود انجازاتهـــــا الحديثة ، بل لا بد من البحث عن الينابيع الاولى . وذلك حتى تتكامل في المخيلة الصورة الشاملة للحضارة الاوروبية، بمقدماتها، بدلا من الاقتصار على نتائجها المعاصرة .. فقـد يتير لنا التاريخ البعيد ما يغمض على الادراك من دهاليز التاريخ ، وقـــد تفسر البذور طبيعة الثمار . الوعي الحضاري المتكامل هو لب اللباب في تفكير طه حسين حول التراث . لذلك أسس وشجع وترجم اليونانيات ، مستهديا في ذلك ايضا باحمد لطفي السيد الذي نقل ارسطو . اما طه حسين فقد ركز على التراجيديا الاغريقية ونقل اكبر آثارها الى اللغة العربية العذبة الرنين والايقاع . وكان طه

حسين هو الذي شجع لويس عوض على ترجمة «فن الشعر» لهوراس اللاتيني . وهو الذي شجع عبد الرحمن بدوي على ترجمة «كتاب الشعر» لارسطو ، وهو الذي شجع سهير القلماوي على ترجمة حواريات افلاطون حول الشعر وتلخيص «الغصن الذهبي» لفريزر . وهؤلاء مجرد امثلة سريعة ، لعشرات من الباحثين والمترجمين الذين انفتحوا على دراسة الكلاسيكيات ونقلوها الى لغتنا .

وكان طه حسين بذلك يريد ان يرسخ مفهوما جديدا للتراث، مؤداه ان التراث «انساني» يشتمل على الثقافة البشرية اينما وجدت . وقد اراد بذلك ان يسلك تراثنا العربي في المجرى العام للتراث الانسانية من ناحية ، والا نصد انفسنا بالتعصب او مركبات النقص عن تراثات الآخرين . بل ان طه حسين مزج بين تراثنا والفكر العالمي حين طبق على الشعر العربي القديم مناهج البحث الغربية ، فخرج – وخرجنا معه – بازكى الثمرات . لقد استطاع ان يكتشف الوجه الانساني للتراث جنبا الى جنب مع الوجه القومي ، وكان في ذلك الصوت الاكثر عمقا لموقف البرجوازية الثورية من قضية التراث . ولكنه – بطبيعة الحال – لم يكتشف في صميم الوجهين الانساني والقومي الملامح الاجتماعية التي تشكل بدورها بعدا متمايزا للتراث ، هو البعد الطبقي . لم تكن المرحلة التاريخية ولا تكوين طه حسين ، ليسمح باكتشاف هذا الوجه . ولكنه في حدود ما قدمه ، اثار تغييرا راديكاليا في مفهوم التراث السائد حينذاك على الفكر والشعور . كان التراث العربي القديم، المرحلة الاسلامية وحدها في هذا التراث ، هي كل ما يسيطر على العقل والوجدان . ومن هنا كان الفقه وعلم الكلام والشريعة والبلاغة الادبية الموروثة شعرا موزونا مقفى وسجعا منقوما ، هي الضابط والمعيار لاصالة الكاتب والشاعر او عجمتهما . وحين هز

طه حسين هذه المقاييس للاصالة ، باستضافته عناصر جديدة تماما ، اصبح من الممكن لهيكل ان يتخلى عن توقيعه المستعار على غلاف «زينب» ، واصبح منّ الممكن لتوفيق الحكيم ان ينقل روايته الرائدة «عودة الروح» من الفرنسية التي كتبها بها الى العربية ، بل وان يؤلف «اهل الكهف» التي احتفل بها طه حسين احتفالا شديدا وكان لمقاله الشجاع عنها اثره الكبير في اعتبار «المسرح» لونا ادبيا معترفا به . كان ميلاد المسرح والرواية في ادبنا الحديث تجسيدا فنيا لهذا المفهوم الثوري للتراث ، اذ كانا ثمرة لقاء الشكل الفني الغربي مع التجربة المحلية «الوطنية ، القومية ، سمها ما شئت» .

واذا كان امثال هيكل والحكيم وتيمور قد ابدعوا فنيا هذا المعنى الجديد للتراث ، فان طه حسين هـو صاحب الابداع الفكري . وذلك في واقع الامر اضافته الثانية، الباقية على الزمن. ذلك انه بالرغم من الغياب البرد للبعد الطبقي في نظرته للتراث ، الا ان استيعابه لوجهي الاصالة والمعاصرة ، واكتشافه الوجهين الانساني والقومي ، وادراكه ان الواقع هو المؤشر الوحيد للرفض والقبول (حتى وان كان هذا الواقـع برجوازيا والرؤية اليه ليبرالية) .. يعد ذلك كله «بداية الطريق العلمي الصحيح» لفهم التراث وامتلاكه ودوره في حياتنا . انه ليس قيمة تاريخية فحسب ، بل هو قيمة باقية سارية في امتداداتها الاكثر تقدما وتطورا . انه الاساس وتصميم البناء معا . وكما ان «اهل الكهف» كانت امتزاجا بين القالب الغربي والتجربة المحلية ، ثم انتقلت بعدئذ في اعمال الحكيم وبقية كتابنا لان تتجاوز هذا «المزج» الى التركيب ، فاثمرت مسرحا مصريا خالصا .. فان القاعدة التي شيدها طه حسين لتاسيس «نظرية للتراث» ، قد اصبحت بفضل «حضورها الدائم» وتطورات عصرنا منهجا عربيا اصيلا ومعاصرا في آن .

ولعل المستوى الرفيع الذي بلغته دراساته الاسلامية وبحثه الخطير «مستقبل الثقافة في مصر» من أهم الشواهد التطبيقية على القيمة الباقية لهذا المنهج . واذا كانت الفترة الواقعة ما بين معاهدة التهادن عام ١٩٣٦ وبداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ تسجل نهاية جيل النهضة ، فان ذلك كان تعبيرا فكريا عن افلاس الليبرالية المصرية والنهاية الاسيفة للديمقراطية البرجوازية التي حمل شعلتها حزب الوفد . وفي هذه الحدود ينبغي النظر الى «التحول الجماعي» لجيل الرواد الى «الاسلاميات» . انني لست مع القائلين بتطرف ان هذه الموجة كانت ردة رجعية ، فذلك تبسيط مبتذل للامور . ان عبقريات العقاد وسلسلة احمد امين منذ فجر الاسلام وكتابات طه حسين الاساسية «الفتنة الكبرى» و«على هامش السيرة» لا تجسد انتكاسا فكريا من زاوية المنهج ، بل هي في اطارها الاكثر علمية وحداثة من طلاسم السلفيين المليئة بالخزعبلات قد أدت دورا ايجابيا في حياة قراء الدين والمهتمين عموما بالتاريخ الاسلامي . ولكنها من زاوية اخرى كانت «توقفا عن السير» ـ لا ارتدادا ولا نكوصا كما أحب ان اكرر ـ عبّر سياسيا عن تخاذل البرجوازية المصرية عن انجاز ثورتها الوطنية الديمقراطية . كان توقيع «الوفد» بالذات على معاهدة ١٩٣٦ بمثابة اسدال الستار على الفصل الاول التراجيدي من نضال الطبقة المتوسطة المصرية . ذلك ان الثلاثينات قد شهدت نمو جنين جديد في احشاء المجتمع هو الطبقات الشعبية التي صهرتها تجربة ثورة ١٩١٩ وطورتها علاقات الانتاج الصناعي الناشيء وقتئذ . وقد تمثلت هذه الطبقات الشعبية في الريف والمدينة للبرجوازية المصرية ، خطرا جاثما على صدر البرجوازية وخيالها السياسي القصير النظر وتحت تهويل الاستعمار الانجليزي لهذا الخطر ومبالغة كبار الملاك في تقييمه . هكذا كان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ التي أثمرت دستور ١٩٢٣ هو اول من حل الحزب الشيوعي

المصري عام ١٩٢٤ والاتحادات العمالية الحديثة الولادة .. وهكذا ايضا كان حزب الوفد بقيادة مصطفى النحاس هو الذي وقع على معاهدة ١٩٣٦ . تم ذلك كله في اطار التهادن مع الاستعمار والعرش والاقطاع . وكانت نهاية مرحلة كاملة في تاريخ مصر الحديث . ولدت بعدها ، في ظل الحرب وبعدها ، مرحلة الاربعينات الجيدة التي توجت سياسيا باللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ،كما توجت بالدم على ضفاف القنال عام١٩٥١ .

وكما ان طه حسين ظل دوما واحدا من ابناء جيله ، وفريدا بينهم في نفس الوقت ، كذلك كان امره حين لم يشذ عنهم في تأليف الاسلاميات ، ولكنه انفرد بينهم بكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الذي يعد الختام الرائع لصفحة الديمقراطية المصرية ، اذ كتبه عام ١٩٣٩ .

اما الاسلاميات ، فربما كان اكثر كتابها تقدما من الناحية الفكرية سلسلة أحمد امين ، اذ استنار ببعض الافكار الراديكالية في رصد الملامح الاجتماعية واحصاء السمات الاقتصادية التي شكلت المجتمع الاسلامي في تطوره التاريخي . وأما «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل ، فانه يبقى التصور العقلاني الاكثر حسما لعديد من القضايا الخلافية في حياة الرسول . واما عبقريات العقاد فقد استضاءت بكشوف علم النفس وكذلك بالفكرة المحورية في كتاب كارليل عن الابطال . وأما طه حسين ، فهو الى جانب استفادته من مناهج البحث الغربية في التاريخ ، كان اكثرهم جاذبية وسحرا . انه يقيم جسورا حية بين القارىء المعاصر وذلك التاريخ البعيد ، وكأن شخصياته تعيش معنا وحوادثه تتحرك من حولنا .

وهم جميعا في دراساتهم هذه قد اضافوا الى مكتبة التاريخ

الاسلامي عناصر الحداثة والعقل والعلم ، وهم بذلك نظفوا العقول التي كانت تقتات على الموائد القديمة من الخرافات . وهم بذلك ادوا دورا ايجابيا لا غش فيه ، ولكنه دور «التوقف» لا دور التقدم .. اذ كان اختيار الموضوع ذاته هروبا على نحو من الانحاء من مواجهة الواقع الراهن ، ثقافيا كان او اجتماعيا او سياسيا .

اما «مستقبل الثقافة في مصر» فقد جاء نقيضا لفلسفة دنلوب الاستعمارية في التعليم ، ونقيضا في نفس اللحظة للمناهج السلفية في تعليم اللغة العربية . خلاصة دنلوب انه كان يسود تخريج مجموعة من «الموظفين»، وخلاصة طه حسين انه كان يبغي لمصر ان تفكر . ولا تفكير بغير ثورة على مناهج التعليم واساليب التربية ، ولا تفكير بغير ديمقراطية تتيح «الابن الفقير وابن الغني» حظا متساويا ، اذا توافرت الموهبة فلا غنى من تكافؤ الفرص . واصبح شعار «العلم كالماء والهواء» هو صيحة طه حسين المقرونة باسمه ، والتي ازعجت النظام المعادي للديمقراطية ازعاجا مروعا . ذلك ان المؤسسة الراسمالية المتحالفة مع كبار الملاك والثقافة الاستعمارية ، كان يعنيها في الكثير حرمان «الفقراء» — كما يدعو طه حسين ابناء وبنات الطبقات الشعبية — من التعليم ، وذلك بالا تكون الموهبة او الاستعداد او الذكاء معيارا لاستكمال مراحله ، وانما «القدرة على الدفع» . وهكذا يصبح قدر «الفقراء» جيلا بعد جيل هو «العمل» وحظ الاغنياء هو ان يكونوا «ارباب العمل» . بالاضافة الى ان المدرسة او المعهد او الجامعة ، كانت احد اجهزة المؤسسة الراسمالية من الناحية الاقتصادية ، فالدولة لا ينبغي ان تضع «المال العام» في خدمة العلم والثقافة، وانما يمكن «استغلال» الجهاز التعليمي كمصدر لربح الشركات والافراد ، لا كمصدر خسارة لدولة راس المال . ولم يكن طه حسين ينظر الى الامر من الزاوية الطبقية ، فلم يكن يعنيه ان يزول نظام العمل ورب العمل،

ولم يكن يعنيه ان تكون المدرسة او المعهد او الجامعة جهازا راسماليا او لا تكون . وانما كان يعنيه اولا واخيرا ، ان هذا «النظام» يحرم مصر من عقول ومواهب وطاقات مفكرة تضيع وتتبدد في ظلمة الفقر والحرمان من فرص التعليم . كان يعلم انه من المحتمل ان يكون ابن الباشا غير مؤهل بحكم تكوينه الا لعمل يدوي ، بينما قد يكون ابن الفلاح الاجير في ارض الباشا مؤهلا بالفطرة لان يكون عالما عبقريا. و«تكافؤ الفرص في التعليم» ـ اي باسقاط عنصر القدرة على الدفع ـ هو الذي يكشف الاستعداد ويصقل الموهبة ويفتح للفطرة طريق الاكتساب. هذا هو المبدأ الاول في برنامج طه حسين . وكان المبدأ الثاني هو كفالة الحرية في اختيار مواد التخصص واصلاح مناهج التربية حتى يكون «التوجيه» في اضيق الحدود ، ورفع «سن الالزام» حتى لا يتهرب ابناء الفلاحين من التعليم . وكانت العناية بتدريس العربية جنبا الى جنب مع بقية اللغات الاجنبية هي الهم الذي يؤرق طه حسين على طول كتابه ، بالاضافة الى حرصه البالغ على ترسيخ «الاصول» ايا كانت شرقية او غربية .

وظل «مستقبل الثقافة في مصر» طيلة الحرب وما بعدها ، مشروعا ديمقراطيا حبيس الادراج والصدور التي تجاوبت معه ، حتى قيض لطه حسين ان يكون وزيرا للمعارف عام ١٩٥٠ في وزارة الوفد الاخيرة او وزارة «حلاوة الروح» كما اطلق عليها حينذاك . لقد اراد الوفد ـ حزب التقاليد الديمقراطية ـ ان يستعيد روحه القديمة بعد مرحلة مريرة من الكفاح المصري البطولي في الاربعينات ضد «القبضة الحديدية» لاسماعيل صدقي ، و«العسكري الاسود» لابراهيم عبد الهادي ، مرحلة الاغتيالات (النقراشي ـ حسن البنا ـ احمد ماهر) وحكومات الاقليات (حسين سري ـ نجيب الهلالي) . هكذا اراد الوفد ان يستعيد

نفسه من براثن معاهدة ٣٦ لوقف النحاس ليعلن «من اجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر الغي معاهـــدة ١٩٣٦» . وانطلق الشعب المصري ليشعل حربه الفدائية ضد الانجليز في السويس والاسماعيلية وبور سعيد . في هذا الوقت تماما اتيح لطه حسين كوزير للمعارف ان يطبق جزءا يسيرا من برنامجه ، وبعد صراع مرير داخل مجلس الوزراء ، وافقت الحكومة على مجانية التعليم الابتدائي والثانوي . وكانت خطوة تقدمية باهرة في حياة المصريين . ولكن النحاس ، والوفد من ورائه ، كان قد نسي أن الزمن لا يتوقف عن السير ، وان التاريخ لا يمكن ان يعود الى الوراء . ففي الخمســة عشر عاما التي مضت على معاهدة ١٩٣٦ كان المجتمع المصري الذي ارعب الطبقة المتوسطـــة فيما مضى بجنين جديد هو «الطبقات الشعبية» ارعبها حتى هادنت الرجعية المحلية والاستعمار الاجنبي ، كان هذا المجتمع يعاني اهوال الولادة المتعسرة ، ولادة المضمون الاجتماعي الجديد للثورة الوطنيـــة الديمقراطية . حتى ان آلام هذه الولادة قد انعكست على تركيب حزب الوفد نفسه ، فكانت «الطليعة الوفدية» بقيادة عزيز فهمي ومحمد مندور وغيرهما انشقاقا للشباب الراديكالي عن البنيـــة الاساسية لحزب الوفد الذي اصبح يضم تحت جناحيه اشتاتا من كبار الملاك الزراعيين والعقاريين وكبار المساهمين في الشركـات والمصانع التي يصعب التمييز بين راس المال الوطني وراس المال الاجنبي في تمويلها . هكذا كان التناقض بين التطور الاجتماعي لحزب الوفد والتطور الاجتماعي لمصر ، وهو التناقض الفاجع الذي عبر عن نفسه بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ وبان يعلن الوفد الاحكام العرفية وان يتسلم خطاب «الاقالة» في نفس اليوم من «جلالة الملك» . كان الوفد يريد ان يستعيد روحا قد مات ، ولم يبق منه سوى الجسد المهترىء المتآكل . وكان انجاز طه حسين ـ كشأنه دائما ـ هو الصفحة الاخيرة الرائعة التي وضعت حكم

٢٣ يوليو بعدئذ امام مهمة استكمالها وجها لوجه .. فمجانيــة التعليم الجامعي التي اعلنها جمال عبد الناصر كانت في الحقيقة استكمالا واعيا بالمعنى الاجتماعي العميق الذي قصده طه حسين منذ أطلق شعاره «العلم كالماء والهواء» الى ان أتيح له ــ من موقع السلطة التنفيذية ــ ان يحقق الشعار . وهكذا اصبح طه حسين استثناء فرديا يؤكد قاعدة انتهاء الدور الثوري للبرجوازية المصرية في بناء المجتمع واستقلال الوطن . انه بعد معاهدة التهادن عام ١٩٣٦ التي اعلنت افلاس الديمقراطية المصرية يرفع بكتابــه «مستقبل الثقافة في مصر» راية الديمقراطية عاليا . وفي العام الاول من الخمسينات يدرك الجميع ان دور حزب الطبقة الوسطى في الحكم لم يعد تجسيدا لآمال «الشعب» ابان مرحلــة الغليان الكبرى ، ولكن طه حسين يخوض غمار صراع ضار ليضع كتابه ــ قبل ان تذهب الحكومة ــ موضع التنفيذ .

وقد اثبت بذلك ، وعلى نحو فريد ، ان الكاتب العظيــم يستطيع ان يتجاوز «الكتلة السياسية» التي ينتمي اليها فــي المراحل الحرجة من التاريخ .. وان هذه «التجاوزات» هــي مجموعة القيم التي تبقى منه للتاريخ .

ولكن طه حسين اثبت ايضا من ناحية اخرى ان الكاتب ، مهما بلغت عظمته ، لا يتجاوز مقتضيات التاريخ .. فالعشرون عاما الاخيرة شهدت من طه حسين تكرارا لافكار لم تعد قادرة على انجاز التقدم . وحين اصطدمت آراؤه مع الاجيال الطالعة مــن صلبه ، كان الرجل يكتفي «بإسداء النصيحة» او بقوله ساخرا «يوناني لا يقرأ» او بإدانته للجميع انهم «لا يقرأون» . وقد كانت معاركه مع الاجيال الجديدة أقل عنفا من معاركه القديمة مــع السلفيين . ولم يكن العيب فيه ، ولا في الزمن . وانما هي مشيئة التطور الذي لم تعد الليبرالية بقادرة على انجازه او التعبير عنه .

كانت هناك طبقات جديدة تثب الى مقدمة المشهد الاجتماعي ، ومعها افكارها وقيمها ومثقفوها . وكان طه حسين قد استكان في عشه الجميل «رامتان» بشارع الهرم ، يرقب المشهد الماثل عن كثب ودون أسف .. فالبناة الجدد للفكر الجديد ، هم ابنـاؤه الشرعيون .

وبعد .. فمعذرة عن هذه اللمحة السريعة التي يغلب عليها الطموح دون القدرة ، فما اكثر ما يمكن وينبغي ان يقال عن طه حسين ، لا بمناسبة وفاته ، بل بمناسبة «حياته» التي ستظل فينا لامد طويل ، دائمة الحضور .

١٢ – ١١ – ١٩٧٣

هكذا تكلم طه حسين لآخر مرة
« اعدكم بكثير من الألم وقليل من الأمل »

تتداخل صوره في المخيلة تداخلا مثيرا : الفتى الصغير الذي يفقد بصره في وقت مبكر نتيجة الجهل والتخلف يصبح شعاعا مضيئا على طريق التقدم . الصبي الفقير الذي يتعلم القرآن في الازهر يصبح النجم اللامع في صفوف السوربون . الشاب الذي رضع التراث العربي الاسلامي في ينابيعه الاولى يقف منذ بداية عمره الادبي في قفص الاتهام بالكفر والالحاد . كاتب الحزب الارستقراطي يختتم حياته السياسية بالانضمام الى وزارة الحزب الجماهيري .

ويطل طه حسين من تلافيف الذاكرة ، حين كنت اسرق الزمن وادلف الى مدرج قسم اللغة العربية ، لاسمع صوته الرخيم عملاقا قويا ودودا ثابتا يستقر في القلب قبل الاذن . . يحرص على مخارج الالفاظ ويؤكد النغم بتلقائية مدروسة دون تمايل هنا او هناك ،

دون ايهام موسيقي للمعنى ولا انتشاء بروح الشعر عن جسد العلم . لم تكن الجامعة ، بفضله ، في ذلك الوقت حشوا للمعارف فـــي الادمغة ورخصة لاحدى الوظائف .. وانما كانت معبدا لحريـــة الفكر رايتها الخفاقة هي العقل ، وظيفتها الوحيـــدة هي البحث والكشف .

خارج اسوارها يطل وجه طه حسين على ابنـــاء جيلي الفقير المتعب بملمحين بارزين متناقضين : اولهما ينادي لنا بالعلم كالماء والهواء . نحن الفقراء نفهم معنى هذا الشعار : نحياه ونعانيه . كان اهلنا يبيعون كل ما لديهم ويستدينون ولا يسددون واحيانا يموتون ، حتى ندخل المدارس والجامعات ، فلا نعيد سيرتهـــم المقهورة ولا نكرر فقرهم المروع . كانت الشهادة الدراسية تعني لدى الاب والام شهادة الميلاد الجديدة ، مصلا ضد الموت المجاني . كانت تعني الارث الوحيد الممكن بدلا من العمارة والارض وارصدة البنوك المتوفرة لغيرنا . هكذا كان اسم طه حسين يتسلل الـــى الاكواخ في القرى والبيوت الصغيرة في الاحياء الشعبية رمـــزا للحياة . لا يعنيهم من امره ما يقال عن «زندقته» ، ولا تهمهم هذه المناقشات الغريبة التي يسمعون أصداءها الخافتة من حوار عنيف بينه وبين شوقي او العقاد او الدكتور هيكل . كان بالنسبة لهم نورا — هو الاعمى — يضيء لابنائهم مستقبلا لا يرونه ، هـــم المبصرون .

والملمح الآخر الذي رايناه نحن ابناء هذا الجيل في وجه طه حسين ، كان ذلك الموقف «المحافظ» في الآداب والفنون . كنا في أواخر الاربعينات واوائل الخمسينات ، نتطلع بعيون مبهورة الى تلك المعركة الضارية بين القديم والجديد . كنا نعشق طـــه حسين ولا نزال . وكان العقاد منذ أمد بعيد يمتد الى قبيل الحرب

الثانية بقليل قد تحول عن دوره الرائد في الحداثة والتجديد . واذهلنا ان يقف طه حسين الى جانب العقاد في معركة خاسرة ، لانها ضد التاريخ . وكان طه حسين رغم ادبه الجم وعفويته ونبله قاسيا مع المجددين حين علق على كتاباتهم قائلا جملته الشهيرة «يوناني لا يقرأ» . اما العقاد ــ رحمه الله وغفر له ــ فقد لف ودار ونادى اقرب شرطي ! وبينما تقوقع العقاد داخل صدفة محكمة الاغلاق بعد قيام حركة ٢٣ يوليو ، فان طه حسين ظل يحاور من كان يدعوهم بالجيل الجديد من امثال لويس عوض وعبد الحميد يونس وعبد الرحمن الشرقاوي . لم يقطع صلته بهم يوما وظل حواره الشغوف بالحقيقة قائما . وبالرغم من ان الكاتب لا يتجاوز مقتضيات التاريخ ، اذ يبقى امينا لتكوينه الاجتماعي والتمائه الفكري وخبرة الحياة والثقافة التي عاشها ، فان طه حسين برهن دائما على انه لن يسمح لنفسه بان يقف في طريق التقدم مهما كان طريقه هو الى التقدم مختلفا . اي ان ايمانه الديموقراطي بتعدد الوسائل والاساليب بقي جوهرا اصيلا في مقومات وعيه بالوجود . هكذا لم يقف مناوئا على طول الخط لحركة الشعر «الجديد» ــ كما فعل العقاد مثلا عندما احال شعر صلاح عبد الصبور الى لجنة النثر للاختصاص ! ــ وانما اكتفى طه حسين بالقول انه لا يرى باسا في ان يجدد الشعراء ما شاءت لهم قريحتهم ان يجددوا في الاوزان وصور التعبير شرط ان يقدموا لنا في النهاية شعرا اولا وقبل كل شيء . تلك كانت خاتمة معركته مع الشرقاوي على صفحات «الجمهورية» . ولم يقف طه حسين مناوئا على طول الخط للادب الواقعي الجديد ، بل كتب مقدمة لاحدى مجموعات قصص يوسف ادريس الباكرة لم ياخذ عليه فيها الشكل ولا المضمون ، وانما اكتفى بنصحه ان يكتب وفق قواعد اللغة العربية الفصحى . بينما حرم المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب يوسف ادريس من جائزة القصة القصيرة بدعوى انه يكتب بالعامية ! وكما

كان طه حسين في القديم ، هو أول من رحب بـ «أهل الكهف» مسرحية توفيق الحكيم وأول من بارك هذا الشكل الدراسي الجديد ودشن كاتبها كواحد من أعمدة الادب العربي الحديث .. كذلك كان استقباله لروايات نجيب محفوظ ـ الكاتب الشاب ـ حافلا ، وظل مواكبا لاعماله يلخصها لقرائه ويحللها ويشيد بها حتى ثبتت اقدام نجيب محفوظ واصبح كبيرا . بينما رفض المجمع اللغوي رواية «القاهرة الجديدة» وحرمها من الجائزة بحجة انها رواية جنسية ، فاستبدلها العقاد برواية «خان الخليلي» ! ولم يقف طه حسين مناوئا لاتجاهات الفكر الملتزم على طول الخط ، فبالرغم من قوله ان الفن كالزهرة الجميلة لا يهمها «نفع» جمالها للآخرين ولا يعنيها زكاء رائحتها ، فانه لم ينكر في نفس الوقت ان الاديب مسئول امام ضميره وامام الحياة وامام الامة وامام العصر ، عن كافة المظالم والجرائم المعادية للضمير والحياة والامة والعصر . وقد اكد هذا المعنى بالحاح في رسالته لاحد مؤتمرات الادباء العرب .

واذا كانت الشيخوخة قد اوقفت باتصال طه حسين مع الاجيال عند حدود نجيب محفوظ وسهير القلماوي وعبد الرحمن بدوي ولويس عوض وعائشة عبد الرحمن ، فانه بالنسبة لنا يبقى تاريخا حيا كمثقف مصري عظيم عاش احلى سنوات العمر مناضلا وطنيا جسورا في مقدمة الصفوف. لقد كانت الوحيدة الديناميكية الحارة بين فكره وسلوكه ولا تزال نموذجا وقدوة ، فرغم فقدان البصر ورغم مؤهلاته الاكاديمية التي كانت تكفل له مكانا مريحا في برج من العاج الجامعي ، ربط طه حسين بين الثقافة والحياة ربطا اصيلا ومعاصرا ابعد ما يكون عن النظر المجرد واقرب ما يكون الى النشاط العملي الفعال . هكذا ناضل داخل الجامعة وخارجها ، بتغيير مناهجها تغييرا جذريا ، وبالاشتراك المباشر في العمل

السياسي . وقد تعرض لصنوف من القهر والضغط والاكراه ، كان يمكن لغيره من المبصرين ان تتراجع به الى العكوف في البيت واغراء المطالعة وغواية البحث والكتابة . ولكنه بذلك كان يكف عن ان يكون طه حسين : ذلك الذي انتصر على نفسه اولا ، فلم ير بدا من استكمال الطريق الى الانتصار على العالم من اجل تثبيت قيم الحق والخير والجمال .

كانت السيارة الصغيرة التي يجاورني داخلها لطفي الخولي من ناحية وخالد محي الدين من ناحية أخرى ، تسرع بنا فـــي شارع الهرم وقد اثارت غبار الذكريات في مخيلتي اكثر كثيرا مما اثارت غبار الشارع العتيق . لم تكن المرة الاولى التي ازور فيها طه حسين ، فمنذ عشر سنوات تماما ، اعتدت ان اتوجه الـــى «رامتان» وبين يدي كتاب جديد اكون قد انجزته . ذلك انني كنت قد سمعت من صديقي الراحل انور المعداوي ان طه حسين يشكو العقوق من الجيل الجديد ، فهو لا يعرفهم ولا يدري ماذا يصنعون لانهم لا يهدونه مؤلفاتهم . وعام ٦٢ صدر لي كتابي النقدي الاول «ازمة الجنس في القصة العربية» . وتحمس له انور المعداوي ولويس عوض وسهير القلماوي ، كل على طريقته ، حماسا كبيرا . اما لويس وسهير فناقشاه بإذاعة البرنامج الثاني . وحين اتيح للدكتورة سهير ان تكون على راس دار الكاتب العربي قررت اعادة نشره . واما انور المعداوي فاصر على اشتراكـــي بجائزة المجلس الاعلى في النقد الادبي . وكانت لجنة التحكيم مشكلة من طــه حسين وسهير القلماوي ومحمد مندور وآخرين لا اذكرهم الان . ثم جاءني لويس عوض ذات يوم قائلا : الدكتور طه حسين يسأل عنك . وكنت حريصا على عدم الاتصال بأي عضو من لجنة الجائزة ولو اتصالا عاديا . غير اني ما ان سمعت اسم طه حسين حتى اهتززت فرحا وامسكت بسماعة التليفون اطلب من «العميـــد»

موعدا . وفي اليوم التالي كنت امامه ، لاول مرة ، في لقاء مباشر ، وحدنا . سالني عمن اكون وماذا درست ، واخيرا كيف لا ازوره (رغم علاقة القربى التي تربطني بسكرتيره السابق فريد شحاته) ثم قال لي بعطف ابوي صادق : **رغم كثرة مشاغلي فقد طلبت من فريد ان يقرا لي صفحات من كتابك ، ولا تغتر اذا قلت لك اني لم اترك الكتاب حتى النهاية . لي عليه وعليك ملاحظات كثيرة ، ولكني حقا مفاجا بك . الجائزة التشجيعية في النقد ، نظريا ، لامثالك ، حتى تستكملوا الطريق . ولكن ماذا نصنع بامثال خفاجـــــة** (يقصد المرحوم الدكتور صفر خفاجة الذي نال الجائزة عن كتاب «حول النقد اليونانـــــي») . **لقد انتت عليك سهير ومنصور ثناء تستحقه . واحب ان تزورني دائما .**

لعل «العميد» الان لا يدري كم سعدت ، فهذه جائزتـــــي الحقيقية . . وفوجئت بان اللجنة قررت اخراج الكتاب من الجائزة حتى المكن من تقديمه مرة اخرى . منذ ذلك الوقت وانا ازور الدكتور طه حسين ، اهديه كتابا ، يسالني بامعان وتدقيق عن جيلي وماذا يكتب . يهز راسه كثيرا ويتكلم قليـــــلا . واذكر ان التلفزيون المصري اجرى معه حوارا تاريخيا يضمه مع حوالي عشرة من كبار مثقفينا ، والتقيته بعدها . كانت فرحته لا تحد بمن كان يتصورهم خصوما فيما مضى (يقصد محمود العالم) وقد احاطوه بعرفان صادق ومحبة غامرة .

وحين ترجلنا من السيارة : خالد محي الدين ولطفي الخولي وانا ، كانت خطواتنا اليه تاكيدا لمعنى لا يغيب ، فاكثر الاتجاهات الفكرية امتدادا للرائد العظيم وتواصلا مع نبعه الذي لا ينضب ، هو الاتجاه النابض باحلام شعبنا في الحرية والتقدم .

قال له لطفي الخولي : كانت الفكرة يا استاذنا ان نقوم اسرة

«الطليعة» بحوار شامل معك ، جميعنا تلامذتك، بيننا المتخصصون في التاريخ والفلسفة والادب والفن . ولكننا حتى لا نرهقك ، ورغم ان هذا الاقتراح أمنية غالية ، فاننا سوف نكتفي بأسئلة غالي شكري .

وقد كان «العميد» فيما يبدو مرهقا بالفعل الى اقصى الحدود ، جلس على مقعد خاص وغطى ساعديه ويديه بساتر من القماش الغامق لم يخف اهتزازا واضحا في الكتف وضعفا لم نعتده في الصوت . وهمس لي السكرتير الشاب الجديد انه احيانا يصاب بالاغماء ، فلتحذر . سألني ان اتلو عليه ما كتبت ففعلت . ابتسم بوقار ، وهو يتمتم برنين متقطع خافت : **ما شاء الله ، ستزورني كثيرا رغم قسوة البرد ، فهذا الشتاء عاصف** . وانعطف برأسه **يكلم سكرتيره : اتصل به كلما قلت لك** . ثم وجه لي الخطاب : **هل يمكنك ان تاتي في اي وقت** ؟ واجاب خالد محي الدين ولطفي الخولي معا : **بالتاكيد** .

اما انا فلم تسعني الفرحة واكتفيت بالهمس : أرجو الا يزعجك قدومي .

وكان الشتاء «عاصفا» ، فقد تصاعدت حركات الطلبة والمثقفين في الجامعات ونقابة الصحفيين ، وعلى مدى ثلاثة اسابيع ظلت القطع شارع الهرم من ميدان التحرير الى فيللا «رامتان» ، وعلى مدى أكثر من اربعين ساعة ظل الرجل الكبير الذي يعاني في صمت أهوال تحدي المرض والشيخوخة ، يجيب على اسئلتي ، ويجتمع بأعضاء المجمع ، ويستفسر مني عن اخبار توفيق الحكيم . بدا لي عملاقا شامخا يصارع الزمن بارادة عنيدة ملؤها العتب على الحاضر والايمان بالماضي والامل في المستقبل .

* * *

قلت له ، والعقل يرمي شباكه ليضم في اهابه الذاكرة والخيلة ، واسرائيل تحتل سيناء والجولان وغزة والضفة الغربية من نهر الاردن والقدس ، والمصير العربي أصبح مسألة مصرية ، ومصر اصبحت قضية عربية .. قلت :

● من الافكار المحورية الهامة التي عرفتها بعض مراحل تطوركم ، ما يمكن تسميته بالفكرة المصرية في اطار حضارة البحر المتوسط ، فهل لكم ان توضحوا الظروف التاريخية التي رافقت ميلاد هذه الفكرة وابعادها والمصير الذي انتهت اليه ؟

برزت على وجه طه حسين ابتسامة خابية ، ولم يأتني صوته القديم بهندسة الالفاظ وتنميقاتها العذبة التي تشبه الارابيسك .. وانما هو كمن يلملم افكاره بلفظة فصيحة وأخرى عامية ، ببيت عربي قديم من الشعر وحكمة فرنسية ومثل شعبي دارج من الريف المصري ، أجاب :

ـ لماذا يخيفكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا ، ام انكم صدقتم انه بحر الروم ، انه بحرنا كما هو بحرهم ، وهو ليس عازلا ماليا بين الامم بقدر ما هو وسيلة اتصال . ليس لدي جديد في هذه النقطة . فرنسا وإيطاليا واليونان يخصوننا كما نحن نخصهم . قرابتنا لهم قرابة حضارية ، فمن المستغرب ان يضمنا معهم شاطىء واحد ، ولا نتأثر بهم او نؤثر فيهم . والطبيعي ان نتبادل وإياهم التأثير والتأثر ، لا بمنطق الدائن والمدين ولا بمنطق التاجر والزبائن ، وانما بمنطق الجوار . قد يسيء احدهم معاملة جاره وقد يحسن الآخر ، قد تتيح الظروف للجميع معاملة الند للند وقد تسمح بقهر الواحد الآخر . ولكن التأثر والتأثير موجودان في جميع الاحوال . وليس المهم ان ناخذ منهم بقدر عطائنا لهم ،

فقد لا يكون بحوزتنا الان ما نعطيه . ولكن المهم هو احتكاك العقل والضمير والروح . لا تملك اليونان في وقتنا الحاضر ما تعطيه لنا او لغيرنا ، رغم اهمية شاعرهم الفائز بجائزة نوبل — سفيريس — واهمية الروائي الضخم كازانزاكس .. ولكن اليونان القديمــة اعطتنا ، واقول لك انها لا زالت قادرة على العطاء . بغير سوفوكل ويوريبيدس وسخيلوس وارسطو وافلاطـــون وهيرودوت ، لا نستطيع ان نقيم دعائم نهضتنا الحضارية . هكذا فعل الفرنسيون والايطاليون في فجر نهضتهم .

وتهدج صوته منفعلا حتى انني كدت اجمع اوراقي وانصرف، ثم صمت قليلا ، واكمل :

— توجه المصريين شطر اوروبا من اليونان واللاتين حتــى اندريه جيد وسارتر وكافكا ، هو توجه حضاري ثقافي تمليــه اعتبارات الجيرة الروحية على شواطىء البحر المتوسط .. امــا الالات والماكينات ، فربما كانت اليابان والصين اكثر حذقا مــن الاوروبيين في هذا الصدد . ولكن الحضارات الاسيوية لا تستطيع ان تؤثر في عقلي وروحي وان بنت لي اعلى العمارات وشيدت لي ارفع اجهزة اللاسلكي .

بتهذيب شديد استغللت فرصة صمته وقلت :

● ولكن العرب لا يسكنون جميعا شواطىء البحر المتوسط ، بعضهم ينتمي الى احدى الحضارات الاسيويــة ، هي الحضارة العربية الاسلامية .

بهدوء اشد هز راسه واجاب :

ـ مصر فريدة بموقعها الجغرافي والتاريخي ، اي بحضارتها. انها شمالا تتصل بحوض البحر الابيض المتوسط اي باوروبا ، وجنوبا بمجرى النيل ، اي بافريقيا ، وشرقا وغربا بمجموعة الدول العربية المسلمة عن طريق اللغة والدين .. وبعض هذه الدول يقع على شاطىء البحر المتوسط ايضا . كذلك فنحن تاريخيا عرفنا الوثنية والتوحيد الاخناتوني والمسيحية والاسلام . غزونا بعض الاقطار وغزتنا بعض الاقطار كاليونان والرومان والفرس والترك والفرنسيين والانجليز .

● هل معنى ذلك اننا نساوي بين الجيرة اللغوية والدينية والجيرة الجغرافية ، اي بين المصريين والعرب من ناحية وبين المصريين والاوروبيين من ناحية اخرى ؟

ـ من قال ذلك ؟ انا لم اقل مثل هذا الكلام ابدا . ولا تقل عن جيرتنا للاوروبيين انها جيرة جغرافية بل هي تاريخية ايضا . اي انها جيرة حضارية . اما العرب فان وحدة اللغة والدين تجعل ارتباطنا بهم اقوى ، انه ارتباط الثقافة والعقيدة . ولكننا جميعا ـ مصريين وعربا ـ نحتاج الى التفاعل الحضاري مع اوروبا احتياجنا الى الحياة نفسها ، وما اقوله بوضوح ، هو ان شعوب البحر المتوسط مؤهلة اكثر من غيرها لهذا التفاعل .

استأذنت «العميد» في كلمات قليلة :

● انتماء مصر العربي ، فيما ارى واؤمن ، لا يقتصر على الثقافة والعقيدة ، بل يتجاوز هذين العنصرين الى وحدة الارض والتاريخ مما يحمل في طياته تكوينا نفسيا مشتركا ومتعاطفا في موازاة النضال المشترك ضد كافة اشكال القهر والعبودية .. هذا التكوين يفتح الباب واسعا لاحتمالات وحدة اقتصادية كذلك ،

فنحن في خاتمة المطاف امة واحدة .

رنت على شفتيه صدى كلمات مدغومة تبينت منها :

ــ لا احد ينكر ذلك .. لا احد .

كان سؤالي الثاني امتدادا لما يموربه الشارع المصري من اضطرابات تغلي تحت الارض وفوقها بما يشبه الزلازل والبراكين . كانت الحريات الديمقراطية في موازاة حرب التحرير اعلى الشعارات صوتا .

وطه حسين هو احد رواد الفكر الليبرالي في مصر . عن احمد لطفي السيد تلقى البذرة الاولى ، وفي اوروبا نما الزرع وازدهرت الشجرة ، وفي خضم الصراع البطولي للشعب المصري ضد العرش المتحالف مع الاقطاع والاستعمار ، ازهرت واثمرت .

ولكن الليبرالية المصرية لم تحل دون الدكتاتورية المقنعة ، فاستولت حكومات الاقلية على السلطة الحيز الزمني الاكبر ، وتفاقم التفاوت الطبقي الحاد بين فئات الشعب الاجتماعية . وهكذا افلست الديمقراطية البرجوازية المصرية افلاسا مروعا ، تجسد يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بحريق القاهرة واعلان الاحكام العرفية وتوقف العمل الفدائي على شاطىء القنال . وشرعت بلادنا مع حركة ٢٣ يوليو في بناء تجربة جديدة لا مكان فيها لليبرالية فقد حلت الاحزاب واممت الصحف وشكلت التنظيم السياسي الواحد. انها تجربة مغايرة للعمل الوطني قبل ١٩٥٢ مغايرة في الاسلوب والهدف على السواء ، عرفت المد والجزر والسلب والايجاب . وبرغم التغييرات الاجتماعية المشهودة ، منذ تأميم قناة السويس

ودحر العدوان الثلاثي بجلاء الانجليز وتوفير صيغة طبقية جديدة اقل ظلما لغالبية جماهير الشعب وبناء السد العالي والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم ، فقد ظلت قضية التحرير (من الاحتلال الاسرائيلي بعد هزيمة ٦٧) والتفاوت الاجتماعي (بروز الطبقة الجديدة وتمركز البيروقراطية) ومسألة الديموقراطية (بدعم أجهزة القهر وابتعادها عن الرقابة الشعبية) اصبحت هذه القضايا من الالحاح على الوجدان العام ، بحيث انها تثير مسألة الليبرالية من جديد . ووجدتني اقول لطه حسين :

● لا شك ان الفكرة الليبرالية كانت محورا آخر في تكوين طه حسين المفكر كما يتضح ذلك من فهمكم لقضية الديموقراطية كما انعكست في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» ، وكما انعكست في موقفكم من قضية المرأة ودخولها الحرم الجامعي في عهدكم .. فما هي المنابع الرئيسية التي استقيتم منها هذه الفكرة ، وكيف تمكنتم من ايجاد التفاعل بينها وبين الواقع المصري ، وما هي المكاسب او الخسائر التي ترونها قد عادت عليكم او على الفكر او على الوطن من ورائها ؟

ـ اذا كانت اوروبا وامريكا قد تنكرتا للحرية ، فلا ينبغي ان ننساق نحن في هذا التيار وتتنكر لها . الاحتكارات ضد الحرية داخل المجتمع ، والاستعمار ضدها خارجه . هذه تجربة اسيفة لا يحق لنا ان نفقد الايمان بالحرية بسببها. واذا كانت الديمقراطية في مصر السابقة على الثورة قد اخفقت ، فلا يعني هذا ان الديموقراطية في ذاتها مخطئة . والحرية كل لا يتجزأ ، هكذا تعلمت من اليونان الاقدمين ومن الاوروبيين المعاصرين ، ومن ابطال الوطنية المصرية من امثال احمد لطفي السيد . والحرية ليست حكرا لمجتمع دون آخر ولا لفرد دون آخر ولا لطبقة دون اخرى .

بذلك تفقد الكلمة معناها ، وابحثوا عن كلمة اخـــرى . المقياس الوحيد لاي تقدم او حضارة هو مدى حرية الوطن والمواطن ، اما الصناعة والمعرفة والازدهار الاقتصادي والتفوق العسكري ، فكلها نتائج للحرية . ولا خسارة في الحرية الا للاغلال بكافة انواعهـــا فردية واجتماعية فكرية ومادية . ابحثوا عن اروع واجمل وانبل ما في مصر تجدونه من ثمار الحرية ، اما اقبح واسوا ما في مصر فانه قد نبت وترعرع في غيابها .

* * *

كان ما يدعى بمنهج الشك الديكارتي هو بداية العاصفة التي ألمت بطه حسـين والادب العربي معا ، ذلك ان قصة كتابه «فـــي الشعر الجاهلي» تبقى علامة فارقة في تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي جميعا . كان الكتاب حرثا عميقا لارض ماضينا وتراثنا أحدث في زمنه «هزة كونية» في رؤانا وتفكيرنا . بشكوى مـــن طالب ازهري فتحت النيابة العامة محضرا للتحقيق مع طه حسين، من فوق منابر المساجد انصبت فوق راسه اللعنات بالتكفـــير والخروج على السلف الصالح ، في مجلس النواب ثارت الزوبعة العاتية حول بقائه في الجامعة . وقذفت المطابع سبعة مجلدات في الرد عليه من المشايخ والادباء والعلماء . واسودت الصحـــف بعشرات المقالات التي تطالب براسه وتهدر دمه . ولاول مرة يصبح اسم استاذ جامعي على كل لسان في مصر وخارجها ، قليلون معه والغالبية ضده .

وهو صامد . كان يملي على طلابه بقسم اللغة العربية في كلية الاداب فصول الكتاب فصلا فصلا فلم يحدث شيء . وحين أخرجه الى الناس مطبوعا في دار الكتب عام ١٩٢٦ قامت القيامة ولـــم

نقعد . صادروا النسخ المطبوعة من الاسواق ، ولكنهم لم يتمكنوا من مصادرة المنهج في العقول والاجيال . بل لقد تطور المنهج منذ ذلك الوقت واغتنى بما اضافه وحذفه وعدّله النقاد والباحثون العرب من اقصى الشرق الى اقصى الغرب . ذلك ان بواكير المنهج العلمي في النقد الادبي ، وتطبيقه الحي الخلاق على التـــراث العربي ، لم يكن مزاجا شخصيا فحسب من جانب طه حسين ، وانما كان استجابة موضوعية لاحتياج فعلي في باطـــن ارضنا ، احتياجنا الى التقدم ودرء التخلف . وكما أن ديكارت نفســه قد عانى الاهوال من الكنيسة والخرافات الشائعة المنسوبة الــــى المـــسيحية ، هكذا عانى طه حسين في تثبيت اركان المنهج العقلي. ولم يكن ما اخذه من ديكارت سوى البذور الاولى التــــي ناسبت حينذاك متطلبات الفكر البرجوازي الناشيء . قلت للثائر القديم :

● كان لاستحداثكم المنهج الديكارتي في تقييم التراث العربي دوي هائل في عشرينات هذا القرن ، فهل لكم ان تتفضلوا بتقييم الاثر الذي احدثه ذلك المنهج فيما بعد في ثقافتنا ، سواء بالسلب او الايجاب ، وان توضحوا لنا جوهر الصراع الذي نشب غداة هذا الحدث ، وما اذا كان هذا الجوهر لا يزال باقيا في محيطنا الفكري، وما هو تطوره منذ ذلك الوقت الى الان ، وما هي الاشكال التي يأخذها منذ ظهوره واحتدام الازمة ؟

شعرت بان طه حسين يتأملني مليا ويطيل التأمل حين ظل ــ بعد ان انهيت السؤال ــ وكأنه يرهف السمع الى تكملة ، وكما حاولت ان اشير الى ان هذا هو كل سؤالي ، استبقني هو الى القول :

ــ نعم ، نعم .

ثم قاطع نفسه مستأنفا :

ـ لماذا تقولون «تقييم» وصحيحها «تقويم» ؟ تبنيكم للاخطاء الشائعة ، انتم ابناء الجيل الجديد ، يدعو للاسف . انتم لا تكتفون بكسر عنق اللغة وانما تزهقون روح البلاغة ايضا .

وصمت «العميد» وهو يبتسم ، لم اعلق ، انتظرته ليقول :

ـ انهم ، انت تنبش تاريخا قديما . اما الاثر الذي احدثه كتابي «في الشعر الجاهلي» فاني افترض انكم اعرف به مني ، او هذا ما ينبغي ان يكون . تلامذتي يقولون انه احدث تغييرا عميقا في منهج الدراسات الادبية العربية الحديثة . ارجو ذلك . واسمع ان بعضهم قد تطرف بهذا المنهج كثيرا ، ورغم ذلك فالدنيا تغيرت ايضا فلم اسمع ان احد الباحثين قدم للمحاكمة بسبب كتاب في الادب. لقد حزنت حين فهمت ان الازهر قد طالب بمصادرة احدى روايات نجيب محفوظ (يقصد اولاد حارتنا) وانهم صادروها . كذلك «التمثيل» فقد سمعت انهم حرموا الجمهور من احدى «التمثيليات» ليلة العرض (يقصد مسرحية المخططين ليوسف ادريس) .

هنا هممت بما يشي برغبتي في الكلام . صمت الدكتور فقلت :

● هناك عشرات الاعمال التي لم تر النور ، لان الرقابة في ايامنا لا تسمح بالنشر الا بعد الاطلاع . وهكذا فليست هناك محاكمات كتلك التي شهدتها ايامكم ، لان الكتاب لا يرى النور اصلا . ولولا التدخل الشخصي لجمال عبد الناصر لما ظهر كتاب «محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشرقاوي الذي ابـــرق

لسيادته بموقف الرقابة التعنت . ولولاه ايضا لما ظهر كتاب «في البدء كان الكلمة» لخالد محمد خالد الذي أتيح له ان يجتمع بالرئيس الراحل في منزله اربع ساعات . ولكن عدد الذين لم يرقوا الى رئيس الجمهورية ولم يجتمعوا به يتعذر على الاحصاء. وعدد الذين دخلوا من المثقفين السجون والمعتقلات يفوق التصور. هكذا تجد اهم الكتابات المصرية طريقها للنشر في بيروت .

قاطعني بمودة بالغة ليقول :

ـ موقف السلطة من حرية الفكر في كل زمان ومكان لا يدعو للارتياح تماما . انه موقف نسبي تمليه اعتبارات طارئة . ولكن الذي يدعوني للانزعاج هو المناخ العام ، هو الراي العام . يخيل الي في صومعتي اننا عشنا انا وابناء جيلي في مناخ اكثر سماحة وارحب صدرا . فانتم تقولون احيانا ما سبق ان قلناه نحن بطريقة اوضح واحيانا اخرى تقولون اقل مما قلناه الى هذه الدرجة او تلك. ومع هذا فاني اسمع ضجيجا غريبا، لم نعرفه نحن غالبا الا حين اتهمت انا بالمساس بالمقدسات ، وحين اتهم العقاد بالعيب في الذات الملكية ، وحين اتهم سلامه موسى (وهنا ضحك طه حسين من كل قلبه) بالقاء قنبلة في سينما مترو . الفكر لا يمكن مصادرته والعقيدة يستحيل سجنها والعنف يولد العنف ، افلا نرحم انفسنا حتى نستحق رحمة الله وحتى يكون غيرنا ارحم بنا. تلك هي النتيجة التي انتهت اليها معركة «في الشعر الجاهلي» وكل معارك الحرية في مصر وغيرها من الامم . لا سبيل لتخطئة الفكر بالعنف ، وانما الفكر في مواجهة الفكر . والحياة وحدها كفيلة بتصفية الضار وتنمية الحق والخير والجمال .

* * *

«ايام» طه حسين عاشت في وجداننا لحظة لحظة ، غارت في ضميرنا وخيالنا يأسا واملا ، كانت دليلنا الى التخلف المميت في صعيدنا وريفنا بنخيله واكواخه وقيمه وعاداته ، وكانت حافزنا لمعرفة سر «العبقري» الذي تحدى هذا الجدار الاصم المواجـــه للتقدم . كانت سلوانا في ليالي المحنة الحالكة القلمة ، عبرهـــا حاولنا ان نكتشف سر النور الساطع الذي انبثق في راس الصبي الصغير حتى هداه الى دنيا واسعة الارجاء لا يراها المبصرون .

حين كبرنا ، كبرت معنا «الايام» ولم تصغر بمضي الزمن . ولكن وجداننا اتسع هو الآخر لايام اخرى عشناها مع ديكنز وبلزاك وتولستوي ودوستويفسكي وجوركي وشتاينبك وهمنجواي و.. وقلت لرائد الحداثة في النقد العربي وصاحب «الايام» تأليفـــا وترجمة حياة :

● منذ صدرت «الايام» والنقاد بشأنها حائرون ، على الرغم من اجماعهم على كونها عمل فني كبير . تنبع حيرتهم من شكلهـــا الفني ، هل هي اقرب الى الترجمة الذاتية كالمذكرات ، ام انها عمل روائي محض وان اعتمد على السيرة الشخصية . ولا ريب ان بطل الايام وصاحبها لديه الكثير في حل هذه المشكلة ، لان خالق العمل يدري على الاقل ماذا كان يهدف من صياغته على هذا النحو او ذاك .

ـ لا ادري .. هل ترونها مشكلة حقا ؟ رواية او سيرة ذاتية؟ وما الفرق . الادب كله سيرة ذاتية ، حتـــى حين يؤرخ الاديب لاحداث مضت او حين يرمز بالاساطير لفكرة معاصرة . الادب ذاتي وتجسيده للموضوع موقف شخصي . الا ترون توفيق الحكيم في «عودة الروح» ونجيب محفوظ في ثلاثية «بين القصرين»، وقبلهما هيكل في «زينب» ؟ الا ترون ديكنز في «اوليفر تويست» وفلوبير في

«مدام بوفاري» وسارتر في «طرق الحرية» وتولستوي في «انا كارنينا» ودوستويفسكي في «الاخوة كارامازوف» ؟ لماذا تحرموني من الوجود في «الايام» حتى تسموها رواية ؟ ومن ذا الذي قال لكم ان الرواية اعلى مرتبة من السيرة الشخصية في موازين الادب؟ لتكن «الايام» رواية او سيرة شخصية ، فهذا لا يعنيني وانما يعنيكم انتم، ما يهمني حقا هو وصولها وتأثيرها فيكم وفي غيركم.. الى اي مدى وصلت واثرت ؟

قلت :

● تأثيرها ليس موضع شك يا سيدي العميد .

ثم استطردت :

● في «شجرة البؤس» و«دعاء الكروان» و«اديب» ميل واضح الى الاتجاه الرومانتيكي في فن الرواية ، فهل لكم ان تبينوا لنا جذور هذا الاتجاه في ادبكم سواء ما اتصل منها بتكوينكم النفسي او بتكوين العصر الذي كتبت فيه هذه الروايات ، أو بثقافتكم ؟

ــ الرومانتيكية ؟ ربما . هل تقصد بها الاسلوب الشعري الحزين ؟ لا ادري . اليست هناك «الواقعية» التي تفهمونها وتحبونها في «شجرة البؤس» و«المعذبون في الارض» ؟ قد يؤدي بكم شغفكم بالتصنيف الى وصفها بالواقعية الرومانتيكية . لقد استهواني الرومانتيكيون الفرنسيون في مطلع شبابي حين كنت اختلف الى الدرس في السوربون ، ولان زوجتي ايضا كانت تحبهم . غير ان الكلاسيكيين والمحدثين ــ بالمعيار الزمني لا الفني ــ جذبوا انتباهي واهتمامي اكثر . لقد احببت سوفوكل والجاحظ

واندريه جيد وابو العلاء ونجيب محفوظ . هؤلاء رومانتيكيون ؟ لا تنس ان دراستي الاولى لم تكن ادبية خالصة ، فقد درست القانون والاقتصاد والفلسفة والاجتماع على ايدي الفحول من العلماء والاساتذة الفرنسيين الذين تسمعون عنهم فقط او تقرأون حولهم بالكاد . لم اذكر لك اسم شكسبير ، لانني اسألك اين تضعه : هل هو كلاسيكي ام رومانتيكي ام واقعي ؟ اجيبك انه كل ذلك ، لانه فنان عظيم ، او هو «فنان» وكفى .. الفن ليس كالازياء ولا كالماكينات يتغير من عام الى آخر . هناك فن او لا فن ، لا علاقة له بالزمن، فقد اراني معاصرا لشكسبير حين يقرأ عليّ او حين استمع اليه في التمثيل ، ولا اراني كذلك مع احد ابناء جيلي او جيلكم . الفن لا يعرف الزمان والمكان ولا تفسير لذلك حتى الآن ، لا تفسير للموهبة والعبقرية . النقد يستعين بالمجتمع والتاريخ وبقية العلوم الانسانية ويجتهد في التحليل والتعليل والتأويل . وهذا كله مفيد بغير شك ، ولكنه لا يكتشف مطلقا سر الخلق الفني . اكاد اقول ان هذا السر كلغز الوجود نفسه، فالعلوم الطبيعية بنظرياتها وقوانينها تكتشف جديدا كل يوم تفيد منه الانسانية بغير شك ، فالبشرية المسلحة بالعلم تسيطر على الطبيعة ولكنها لا تكتشف السر . هكذا النقد يفيد القدرة على التذوق والفهم ، غير ان سر الاسرار في الابداع الفني يظل مستعصيا على البحث والدراسة والكشف . هل نأسى لذلك ؟ ابدا ، فربما كان هذا السر دافعا لمزيد من المعرفة وحافزا لمزيد من التقدم . ان شهوة المعرفة تخمد لو اننا اخرجنا السر من القمقم .

ولا يعني ذلك ان نرتاح الى ايمان العجائز ونطمئن الى الخرافات ، سواء في العلم الطبيعي او في الخلق الفني . سر الابداع او سر الوجود لا يعني ان ثمة قوة مفارقة للطبيعة قد فعلت ما تراه وانتهى الامر . التفسير المادي كالتفسير الغيبي اعجز

من ان يقيم البرهان والشهادة على الحقيقة الفنية او الكونية . انها محاولات تخضع للصواب والخطأ ، تضر وتفيد ، ولكنها لا تكتشف اللغز الذي ارى بقاءه الحتمي ضروريا لبقاء الحياة والفن علـــى السـواء .

كان طه حسين يتكلم وقد استعاد صوته القديم في مدرجات كلية الآداب ، لا اعتقد انه كان يخاطبني وحدي ، اتصور مـــن حديثه المتدفق الصبور المتاني ان خياله قد تعلق بجموع غفيرة من الطلاب . ورغم انه في كلمات قليلة أثار لدي العديد من التساؤلات حول موقع هذه الكلمات من اتجاهه في النقد والفن وموقعها من اتجاهات العصر ، الا ان حماسه الفاجيء وانفاسه المبهورة قد الفت عندي اية رغبة في الاستفسار او التساؤل او التعليق .

***

كانت دراسة اليونانية واللاتينية ولا تزال من اشق مقررات طلاب الآداب ، وكان افتتاح قسم الكلاسيكيات بالجامعة حدثا لا زال طلابه هم اقل عددا من طلاب اي قسم آخر . رغم ذلك فان اجيالا متعاقبة من الاساتذة والطلاب تخصصت وتفرغت لدراسة اللغات القديمة وآدابها . وبعد ان كان ارسطو وافلاطون وسوفوكل وهوراس ينقلون الى لغتنا عن طريق الانجليزية والفرنسية، تيسرت لنا سبل نقلهم وغيرهم من الامهات والاصول والمصادر الاولى .

ولم تكن اللغات القديمة في ذاتهـــــا هدفا ، وانما كانت الحضارات القديمة هي الهدف ، خاصة ثقافاتها وفنونها . من هنا، وحتى يتم اعداد المؤهلين لترجمة الآثار القديمة عن لغاتها الاصلية، قام طه حسين بالتركيز على دراسة اليونان واللاتين ونقل آدابهم

وقنوتهم ولو عن لغات وسيطة .. جنبا الى جنب مع جهـــوده الضخمة داخل الجامعة في تعليم اللغات الاصلية . هكذا وجدتني اقول لاول من علمنا تذوق اوديب والكترا واوريست في لغة عربية اصيلة ومعاصرة :

● في مطلع هذا القرن استضافت اللغة العربية لاول مـــرة التراث اليوناني في الدراما . وقد تم ذلك بواسطة ما نقلتموه عن عمالقة المسرح الاغريقي. ولا يخفى عن سيادتكم انه منذ ذلك الحين اصبحت اليونانيات تشكل تيارا قويا داخل الجامعة وخارجها . والسؤال في هذه النقطة مزدوج : الى اي مدى كان هذا التيار عند نشأته على ايديكم ملبيا لاحتياجات موضوعية في واقع المجتمع المصري والثقافة العربية بشكل عام ؟ والى اي مـــدى ترون ان الامتدادات المعاصرة لهذا التيار تقوم بواجبها على نفس المستوى (هنا نبهني الدكتور طه حسين الى تصحيح العبارة بالقول : المستوى نفســه) من الاحساس بالمسئولية الذي تلقيه التراث اليوناني. فـــي بلادنا منذ بدايات هذا القرن ؟ ما هي النواقص والعيوب ، وكيف يمكن التغلب عليها ؟

عندئذ اراح طه حسين رأسه الى اعلى مطلبا بما يشبه التأكيد على الافكار قبل العبارات :

ــ اليونان آباء الحضارة الحديثة، آباء عصر النهضة الاوروبية. لا استطيع ان اختلف سارتر خلفا من جـــذوره .. اذا ابتغيت لوطني ان ينهض ويلحق بركب الحضارة ، علي ان اقوده الى جذور النهضة العالمية الحاضرة . القائلون بالتراث في بلادنا ينسون او يتناسون اليونان ، بذلك هم يجهلون او يتجاهلون ــ والنتيجـة سواء ــ ان الحضارة العربية الاسلامية في ازهى عصورها نقلت

اليونان . بل ان بعض الاوروبيين يبالغون في هذه النقطة عندما يجحدون فضل العرب عليهم في نقل اليونان اليهم . لا نهضة لاوروبا ولا لغيرها دون اليونان ، ثقافتهم وحضارتهم . لماذا لا نقول انه من ابرز تقاليد الفكر العربي الاسلامي المتحضر هو الاحتكاك بالاغريق ، ونكتفي باحياء علوم الدين للغزالي ؟

.. وصمت طه حسين قليلا ، ثم قال :

ـ عليك ان تذكر فضل احمد لطفي السيد في نقل ارسطو . كان عمله فذا ورائدا ، هو «استاذ الجيل» بحق . اذكر ايضا جهود الشباب امثال عبد الرحمن بدوي وسهير القلماوي وصقر خفاجة وزكي نجيب محمود ولويس عوض وكل من نقل عملا يونانيا في الفلسفة او الفن او النقد ولو تم ذلك عن لغة اخرى غير اليونانية . هؤلاء رغم اختلاف نوازعهم وتباين ثقافاتهم ومواهبهم وخبراتهم ، يدركون اول الطريق لنهضة امتهم من سباتها الطويل . هؤلاء وطنيون قبل ان يكونوا علماء . انهم يتشددون اكثر من غيرهم من ادعياء التراث ولا اقول دعاته تقدم بلادهم ورفعتها بين الامم .

● في خط مواز لاهتمامكم بالتراث اليوناني ، تلقينا اهتمامكم بالادب الفرنسي . ولكن الملاحظ ان التيار اليوناني في الثقافة المصرية كان له ابعد الاثر في الاجيال المتلاحقة ، اما الادب الفرنسي في ما اعتقد ، فانه لم يحظ بدرجة من الرعاية والاهتمام تخرج به عن الدائرة الضيقة التي يعيش فيها بيننا . فاذا كانت هذه الظاهرة صحيحة ، فما هو تعليلكم لها ؟

والتفت الدكتور طه حسين ناحيتي متسائلا بدهشة :

ـ ماذا يفعل اساتذة قسم اللغة الفرنسية في كليات الآداب

اذن ، وماذا يفعل المبعوثون الى فرنسا ؟ انني لا اجيبك مستنكرا وانما اريد ان اعرف .

قلت وانا احاول جمع شتات الفكر :

● قصدت يا سيدي العميد ان الاتجاه الغالب على النقد الادبي ، مثلا ، يصدر عن التقاليد الانجلوسكسونية .. فرشاد رشدي ولويس عوض وعلي الراعي ، رغم اختلاف مناهجهم في التفكير الادبي ، فهم يصدرون عن الادب الانجليزي ، وكذلك عبد القادر القط رغم تخصصه في آداب اللغة العربية . بعض النقاد الآخرين متأثرون باتجاه الادب والفن في البلدان الاشتراكية . قلة قليلة لا تشكل تيارا ، هي التي تأثرت بالادب الفرنسي والثقافة اللاتينية عموما ، ويبدو الترجمة والتعريف والتلخيص كما لو كان العمل الوحيد لهذه القلة ، اما بصماتها على الادب فهي شبه معدومة . لم يعد يظهر امثال توفيق الحكيم وحسين فوزي ويحيى حقي ومحمود تيمور ومحمد مندور . شعرنا « الجديد » متأثر في الاغلب بالتجارب الانجليزية خصوصا عن اليوت ، مسرحنا متأثر بعديد من الاتجاهات من بينها بيرانديللو وبريخت وبيتر فايس . لا شك ان سارتر وكامو وميرلوبونتي وجابرييل مارسيل وبيكاسو وجان كوكتو ، بالاضافة الى كلاسيكيات الفكر والفن الفرنسي يملأ الخلفية الثقافية لادبائنا وفنانينا .. ولكن بصماتهم على الانتاج الثقافي ، والاستهلاك بالتالي ، اقل وضوحا من بصمات الثقافة الانجليزية والروسية مثلا .

ولم يعلق طه حسين . راح في تفكير عميق .

***

اردت ان اقطع الرحلة الموضوعية مع طه حسين بسؤال يبدو شخصيا ، فانا انتمي الى جيل تربى على اعداد مجلـــة «الكاتب المصري» . بين الرسالة والثقافة والكتاب ، كانت «الكاتب المصري» اكثر المنابر الفكرية والادبية قربا الى المتغيرات العقلية والشعورية التي ادركت جيلنا غداة الحرب العالمية الثانية . قلت له :

● لا تزل اعداد «الكاتب المصري» التي ظهرت في الاربعينات من هذا القرن ، والتي حظيت طوال فترة صدورها القصـــيرة برياستكم لتحريرها ، لا تزال اعداد هذه المجلة مدرسة يؤمهـــا الشبان الجدد كلما تاقت نفوسهم للثقافة الجادة . ولست اظن الا ان معاصريها ايضا كانوا يقدرونها الى ابعد حد .. فما هو اولا المنهج الذي ابتعتموه في ان تصل هذه المجلة الى ذلك المستوى الرفيع ، وعلاقة ذلك بالفكر العربي حينذاك ؛ وما هو ثانيا السبب او الاسباب التي ادت الى احتجابها بينما تبقت في السوق مجلات اخرى تقل عنها كثيرا ؟

وتكهرب الجو فجاة ، احتقن وجه استاذنا الكبير ، وارتبكت قليلا ثم خشيت من بوادر ازمة صحية تثقل وطأتها على جسده الضعيف ولممت نفسي استعدادا للرحيل . واحس صاحب القلب الكبير بما اعانيه فاشار عليّ بالبقاء . صمت طويلا ، شيئا فشيئا استعاد صورته الطبيعية ، وقال :

ــ هذه قصة قديمة ، قديمة جدا . كانت المجلة ومطبوعاتها منارة الحرية . كان كبار الكتاب الاوروبيين يكتبون فـي «الكاتب المصري» خصيصا ومباشرة . وكان الجيل الجديد يعرض افكاره. سهير لخصت «الغصن الذهبي» لفريزر . لويس كتب ابحاثه الباكرة في الادب الانجليزي . رشاد رشدي شرح المعادل الموضوعي ، مع

الشباب جنبا الى جنب كان الكبار يكتبون . سلامه موسى نشر «تربيته» كلها في «الكاتب المصري» . هذا الكتاب اعظم ما كتب ، وقد نشرته في مطبوعات المجلة بعد ذلك . كانت مصر تغلي ، وكانت «الكاتب المصري» تعبيرا عن هذا الغليان .

عاد الى الصمت برهة ثم قال بسرعة :

ـ وكما اجهضت الدكتاتورية حرية الشعب احتجبت «الكاتب المصري» .

وحتى لا تراوده «الازمة» الغريبة التي وشت لي بان ثمة سرا وراء احتجاب «الكاتب المصري» تحولت بالسؤال وجهة اخرى :

● لقد اتيحت لجيلكم فرصة ان يعمل بالصحافة جنبا الى جنب مع الادب ، فماذا ترون من خلال تجربتكم الشخصية : هل افادت الصحافة الادب ، وهل افاد الادب الصحافة ، في ذلك الحين ؟

اخذ نفسا عميقا وراح يجيب بتؤدة وتركيز :

ـ جميعنا تقريبا عملنا بالصحافة . هيكل (يقصد الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف زينب) هو الذي اغراني في البداية . ولكن الجميع ، كالعقاد والمازني وسلامه موسى ، عملوا فـــي الصحافة . لم يكن الامر تنازلا من جانبنا ، ولا استهلاكا لنا من جانب الصحافة . القاهرة تعكس في جوهرها الاعمـــق اهتمام الراي العام ـ معبرا عنه بالصحافة ـ بالثقافة الجادة . كــــان الناس في ذلك الوقت يهتمون باسماء فرويد وبرنارد شو وهكسلي والمتنبي اهتمامهم باخبار تشرشل وهتلر وستالين وموسولينـــي وسعد زغلول وعدلي يكن واسماعيل صدقي والنحاس .

يخيل الي ان الناس لم تعد تهتم بالثقافة الجادة ، ومن السياسة تاخذ القشور وعناوين الصحف والصور . هكذا اصبحت ثقافة العامة في زماننا هي ثقافة الخاصة في زمانكم . ما هو السبب ، وقد كثر عدد المدارس والجامعات وتعددت اجهزة الاعلام التي تخاطب الاميين كالسينما ودور التمثيل والاذاعة والتلفزيون؟ ثمة شيء خطأ قد حدث ، ولكن ما هو ؟ لا تذكر لي عصر السرعة، فاني اكره هذا التعبير المضلل . سرعة الجهل شيء وسرعة الثقافة شيء آخر . لم نكن نفرق بين طلابنا وقراء الصحف ، فلم نكن مزدوجي الشخصية ولم نتردى في هاوية التعجل والسطحية والقتالة . اكبر مؤلفاتنا هي فصول كتبت اولا للصحف ، او لطلاب الجامعة او للاثنين معا .

الان ينتابني الاسف حين اجد الصحافة تسرق خيرة ادبائنا ونقادنا وتقتصب ما لديهم من معرفة وقدرات تضعها في اقراص سهلة البلع والهضم في الامعاء الكسلى للقراء ، فقراء الفكر والشعور . هكذا نخسر الثقافة ولا تربح الصحافة .

* * *

لا تستهويني قضية اكثر من «النقد» اذا جلست الى طه حسين . فاذا كان الوجه السياسي لمنهجه في كتاب «الشعر الجاهلي» كان محور نقاشنا الاولي حول هذه القضية ، فاني اردت ان اعود الى الوجه الآخر لهذا المنهج :

● هل استطاع منهج النقد الوضعي او تقييد النصوص ان يخدم هدفكم الاكبر في مراجعة التراث ، ام انه كان بالامكان الاستعانة بمناهج اخرى ؟

اجاب طه حسين بما يشبه الانفعال :

ـ ليس هناك نقد خارج نقـــد النصوص ، فعصر المتنبي لا يعنيني .. شعره هو الذي يعنيني .. العصر قد يبرر ، دراسة الشخصية قد تثير ، عادات المجتمع وظروف البيئة وقيم الانسان قد تساعد على الفهم . ولكن الفن الذي يرتبط بعصره وحـــده ومجتمعه وحده ويرتبط آليا بالشخص الذي ابدعه والقيم والعادات والتقاليد التي احاطت به ، هو فن موسمي ومحلي وغير قابـــل للبقاء ، غير قابل العطاء . لذلك كان «النص» نفسه خارج قيــود الزمان والمكان ، هو المعيار الوحيد للتقويم الصحيح .

الى اي عصر ينتمي «هاملت» في تمثيلية شكسبير؟ الى العصر الفكتوري ام الى العصر الحديث ؟ ماذا نعرف عن شخصيـــــة شكسبير ، واذا عرفنا فما هي العناصر التي يمكن ان تكون قـــد اثرت على تاليف هاملت .. حتى لو توافرت المعدات اللازمـــــة لتسجيل كل نبضة في قلب المؤلف والتقاط كل شاردة في خياله، كيف يمكن ان نحصي ردود الافعال الفنية لهذه النبضات والشوارد. ماذا يدرينا ان طفولته او صباه او شبابه هو الذي ترك بصماته على هذا المقطع دون ذاك ؟ ماذا يدرينا ان ثقافته اكبر من موهبته او العكس .

لو ان الناقد تفرغ لخارج الفنان وداخله لغاص في متاهات ، قد تغني معرفته التاريخية والاجتماعية والنفسية وقد لا تزيده علما بكل هذه المجالات . غير ان المؤكد هو ان «الفن» يبقى الحقيقة الضائعة من بين يديه اذا لم يتخذ من النص دليله الوحيد لمعرفة هذه الحقيقة الاشمل من التاريخ والاغنى من الجغرافيا والاعمق من المجتمع والاخصب من الفرد .

● يظل نقد النصوص او النقد الموضعي يشوبه الغموض ، حتى ان البعض ممن يتحمسون له يقعون في براثن النقد البلاغي الذي عرفه تراثنا القديم ، والبعض الاخر يتصور انه شبيه مما يسمى بالنقد الجديد في انجلترا وامريكا ..

قاطعني العميد بما يشبه العنف :

لا هذا ولا ذاك يا بني .. الافراط في وزن البيت الشعري ، وقياس عروضه ونحوه وصرفه وقوافيه يصل بك الى حدود النقد اللغوي لا نقد النصوص . موضوعية العمل الفني التي ينادي بها دعاة النقد الجديد هنا نقلا عن الثقافة الانجلو سكسونية المعاصرة لا تكتمل الا بالذات فلا تناقض بينهما . النقد الجديد يكاد يجعل من النقد طقوسا كهنوتية تتعثر معها عملية النقد ذاتها .

نقد النصوص ليس تهويما صوفيا حديثا ولا تشريحا لفظيا قديما ، انه رؤية القصيدة مثلا من داخلها ، ولكن هذا الداخل نفسه مليء ومتخم بعناصر الفن الاكثر سموا من اللغة كمصطلحات تعبير او تفاهم . اللغة في الفن تتحول الى عنصر جديد لا علاقة له بمعظم المفردات ودلالاتها القريبة من التناول في الحياة اليومية . اللغة في الفن تصبح فنا او عنصرا فنيا يتكامل نموه مع بقية ادوات الصياغة . نقد النصوص يخترق حجب العادي والمألوف والمرئي بالعين المجردة ، الى دنيا كاملة رآها الفنان بعيون مغمضة او مفتوحة لا يهم .. هي دنيانا الاكثر حقيقية من الحقيقة ، ولكن الفنان يراها ببصيرة تختلف عن البصر العام .

اكتشاف هذه الدنيا من خلال النص، هو عمل الناقد ووظيفته الكبرى ، قل وظيفته الوحيدة .

***

«انها لكارثة كبرى ان يكلف مثلي وضع الاصطلاحات في الطب والطبيعة والفنون العملية المختلفة . ولو ان الاكاديمية الفرنسية عنيت بوضع الاصطلاحات للعلوم والفنون لكانت مواضع سخرية الفرنسيين جميعا والعلماء في مقدمتهم .. فمن العبث اذن ان يكلف المجمع وضع الاصطلاحات او يضيع وقته فيها . وهنالك مسالة اللهجات ، فليس المجمع مدرسة وانما تدرس اللهجات في معاهد خاصة تلحق بالجامعات وبكليات الآداب . وما اعرف ان المجمع الفرنسي مثلا عني في يوم من الايام باللهجات . بل هو يحاربها لان عمله الاول هو الاحتفاظ بنقاء اللغة وصقلها ، فاذا اريد درس اللهجات العربية القديمة كما تمثلها قراءات القرآن الكريم فهذا شيء متصل بالمعجم التاريخي وبالنحو والصرف . وهو شيء مخالف كل المخالفة لما يراد من درس اللهجات الحديثة» .

● هذه الكلمات لسيادتكم ، قد نشرت في «الاهرام» بتاريخ ٤ مارس – اذار ١٩٣٧ قبيل دخولكم المجمع اللغوي . وقد مرت السنين الطوال ، واصبحت مسئولية المجمع احدى مسئولياتكم الكبيرة . وقد كانت هذه الكلمات القديمة مثارا لجدل طويل بينكم وبين مجايليكم (هنا ردد طه حسين هذه الكلمة وهز رأسه تبسم سائلي : لماذا لا تقول معاصريكم) من امثال منصور فهمي واسماعيل مظهر .. فماذا قال الواقع العملي في تلك المشكلة .

قال رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة والعضو بكافة المجامع العربية والعديد من مجامع العالم :

– ارجو ان تكون قد تابعت جهود المجمع فيما نشره من معاجم ودوريات ، وان تكون قد اطلعت على مجلته وبحوثه . فروع العلم الطبيعي يتفرغ لها اساتذة في الكيمياء والطبيعة والطب

والصيدلة والزراعة وما اليها . الفاظ الحضارة الحديثة قد نعمد الى ترجمتها بالاشتقاق والتوليد والبحث في كنوز اللغة القديمة عن مفردات ثم نرتدي معنى جديدا . وقد نترك اللفظ على حاله . في المعجم الوسيط الذي صدر ووردت به اخطاء ، وبعض التجديد، وسيعاد طبعه . في بحوث تيمور بعض القيمة . اللهجات لا علاقة ـ نحوية او صرفية ـ لنا بها . الفصحى هي اللغة العربية ، هي اللغة - غير ذلك نفايات ، لسنا مسئولين ولا معنيين بما يمكن ان يكون فيها من كنوز .

* * *

قبيل الحرب العالمية الثانية واثناءها وبعدها ، كـــان الكفاح الوطني لجيل الرواد ، ابناء عصر النهضة ، قد خمدت جذوته . كان قبول معاهدة ١٩٣٦ ايامهم ، كقبول مشروع روجرز ايامنا ، قبولا بالامر الواقع واستسلاما له كما قال البعض ولا زال يقول . وكما ان هزيمة ٦٧ كانت خاتمة موضوعية لجيل كامل من اجيال الثقافة العربية المعاصرة كذلك كانت معاهدة٣٦ نهاية الجيل العظيم الرائد . كف عن العطاء واتجه بالجملة الى التاريـــخ ينبش آثار الاقدمين ، لا يستلهمها في اعمال فنية تحاور الحاضر وتستشرف المستقبل . كانت نكسة . وصفها الكثيرون بأن اصحابها يسيرون باقدامهم الى الامام وعيونهم الى الخلف .

هذه وجهة نظر قال آخرون بنقيضها . قالوا أن اسلاميات طه حسين والعقاد واحمد امين وهيكل والحكيم ، كانت غزوا من جانب المثقفين للجهل والخرافة . ارادوا بعث الاسلام بعثا جديدا لا يعتمد الاحاجي والالغاز والطلاسم التي تراكمت على الحواشي والهوامش ، حتى لم يعد العربي المسلم قادرا على فكهـــا وحلها ومعرفتها . يجب ان نتوجه اليهم بالشكر ، لانهم استناروا بالعلوم الحضارية الحديثة كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة،

وها هم يسددون دينهم لتراث امتهم فيعاودون فيه النظر ويعملون الفكر والتأمل، ويخرجونه من ظلمات القبور واكفانها العتيقة معرفة حية متجددة معاصرة .

وكانت المشكلة التي تحتاج الى تفسير ــ سواء لدى المؤيدين او المعارضين ــ هي ظاهرة «الجماعية» التي تم بها التحول من دراسة الادب الى دراسة الدين والتاريخ ، من دراسة الغرب الى دراسة العرب ، والظاهرة الثانية هي «التوقيت» الــذي عاصر التحول من ديكارت وفرويد وجان جاك روسو وداروين وبرنارد شو الى محمد وعلي وعثمان وخالد وعمر .

ورأيتني أصوغ الســؤال على نحو آخر ، وانــــا اقول لعميد الدراسات الاسلامية الحديثة :

● عندما صدر كتابكم «على هامش السيرة» ثارت ثائــــرة المجددين والمحافظين على الســواء . ومن جملة ما قيل ان طه حسين قد تحول بهذا الكتاب من النقد الادبي الى الاساطير .. فما هو تقويمكم الخاص لهذه الثورة المضادة المزدوجة من الطرفين حينذاك؟ وهل كان منهجكم في «على هامش السيرة» منهجا تاريخيا فــي صميمه ، أم ترون ان للخيال الفني نصيبا فيه ؟

وبدا لي طه حسين كانه يستعيد ذكرى بالغة القدم موغلة في سراديب الزمن . واخيرا سألني :

ــ من هم المجددون ؟ كنت اظنني واحدا منهم . ولمـــاذا يشيدون بكتابي حول الشعر الجاهلي ولا يفعلون ذلك حين اتصدى لتاريخ الاسلام ، على الرغم من ان مادة الشعر الجاهلي ليست

اقل قدما من مادة التاريخ الاسلامي . كنت اتصور انهم سيحاكمون المنهج ويقومون زاوية النظر ، واذا بالذي يفزعهم هو التصـــدي لحياة المسلمين الاول . هل كان واجبنـا المقدس ان نتركهـــا للمستشرقين ؟ بين المستشرقين علماء افاضل ولكن العلـم ليس حكرا لهم ولا مقصورا عليهم . نحن اولى بتاريخنـــا منهم . اننا نشكرهم . هذا واجب الاخلاق والعلم . ولكن تراثنا الاجتماعي والتاريخي لا يشكرنا اذا تجاهلناه . ام ان الادب هو كل التراث العربي الاسلامي ؟

كان التهكم والمرارة يكونان نبرات طه حسين ، وهو يسترسل:

ـ لست افهم لماذا اصبح طه حسين حين اعالج حياة وشعر ابي العلاء والمتنبي ولا اكون طه حسين حين اعالج حياة الرسول ورسالته وصراع الخلافة من بعده . يا ناس ، ارحمونا وارحموا انفسكم يرحمكم الله . انني في آخر ايامي ، اودعكم بكثير من الالم وقليل من الامل ..

هبطت عليّ الكلمات كالصاعقة وداخلني الانزعاج في كل خلية من دمي وارتج علي القول ، ولكني تحاملت على نفسي والانفعال يكاد يمزق عباراتي ، وقلت :

● استاذنا الكبير .. هل قلت ما يسيء .. ربما لا اكون قد انتبهت الى صياغة سؤالي بدقة .. انني اتكلم عن قضية قديمة لا يتصل الحوار حولها باحترام المعاصرين لفكرك واعتزازهـــم بك واعتبارهم لك استاذهم الاكبر .

لم يعلق وكاني لم اقل شيئا . سألني بحدة :

ـ من هم المجددون ؟ قل لي من هم المجددون . المحافظون لا يفهمونني ، هذا طبيعي . منذ كتب الرافعي (يقصد مصطفى صادق) كتابه ضدي (يقصد معركة الشعر الجاهلي) وانا لا اعبا بهم . ولكن المجددين يتهمونني بالانتكاس والانحراف ؟

● المجددون القدامى ، هذا ما تشير اليه صحافة تلك الايام .

ـ لا .. ليس هؤلاء فقط ، انني اسمع تقويما معوجا لما امليته وكتبه غيري حول الاسلام . هذا جهل .. فالاسلام ثقافة عالية ومرحلة حضارية عظيمة من مراحل الرقي الانساني ولا يزال عقيدة دينية للملايين من البشر ، فهل تصبح دراسته اقـــل اهمية من دراسة «امرىء القيس» ؟ الا تفرقون بين المادة الاولية الخام ومنهج البحث؟ كنتمالتكم تتصورون دراستنا لابطال الاسلام واعلامه ثورة جديدة ، فقد لا يهتم الكثيرون بقراءة ابن الرومي للعقاد ، ولكنهم يهتمون اكثر بقراءة عبقرية عمر . الغالبية كانت ترزح في تلقيها للاسلام تحت اثقال التفسيرات غير العلمية للمشايخ . وجئنا نحن بروح فدائية حقيقية تقتحم هذا الميدان المغلق عليهم . اتيناهم في عقر دارهم لتوقظ المسلمين على تاريخهم الحقيقي . لم تتخل عن مناهجنا التي درسنا بها الشعر وغير الشعر ، ولكننا طبقناها على تاريخ العقيدة التي تدين بها الاكثرية الساحقة . قل أن الاسلام كان مدخلنا الجديد لترسيخ المنهج ، وقل العكس كان المنهـــج مرشدنا الى اقتلاع الخزعبلات من جذورها ، من ارواح العامـــة ونفوس ابنائهم . لم يتخل العقاد عن منهجه النفسي الفردي الذي عالج به ظواهر الفن وشخصيات الادب ، حين كتب العبقريات . لم يتخل هيكل عن الرومانتيكية حين الف كتابه عن الرسول . ولم يتخل الحكيم عن تصوراته الفنية وهو يكتب اول تمثيلية عـــن محمد . كذلك فعلت حين امليت «على هامش السيرة» . العقل

اداة التحليل والخيال اداة التركيب (هنا نطلق الكلمة بالفرنسية) كلاهما عنصران متكاملان في منهج البحث التاريخي . الخيال هنا ليس مرادفا للشعوذة . لماذا لا يسأل اولئك المجددون انفسهم عن اسباب النقمة العاتية والثورة الضارية التي شنها السلفيون من المحافظين . اليس ذلك لاننا هاجمنا اوكارهم المظلمة وسلطنا داخلها الشمس والهواء النقي وفضحنا استارهم المضللة . لقد فضلنا انقاذ مئات الالوف من هيمنة «دكتاتورية الجهل» وعبودية «دولة الخرافة» على ان نظل اسرى اعجاب المثقفين ، صفوة المثقفين .

وخيل لي ان الدكتور طه حسين يرتجف .

***

● في اكتوبر عام ١٩٣٢ حدث سجال بينكم وبين الدكتور هيكل حول دور الغرب في الثقافة العربية بمناسبة صدور كتاب المستشرق جيب «وجهة الاسلام» . فما هو رأيك مفصلا في العلاقة الفكرية بيننا وبين الغرب ، واثرها في حضارتنا المعاصرة ؟

ـ ماذا تقصد بحضارتنا ؟ حضارة العالم ام حضارتنا نحن ؟

● نحن .

ـ هناك علامتان اساسيتان في كتاب العلاقات الحضارية بيننا وبين الغرب . الاولى في ذروة الحضارة العربية الاسلامية عند احتكاكها باليونان . والثانية بدات مع حملة نابليون ولا زالت قائمة . الفرق الخطير بين العلامتين ، ان الاولى اقبلت ونحن في

أوج المجد ، والاخرى اقبلت ونحن في سبات عميق . لذلك كانت النتائج ـ ايضا ـ مختلفة . الدرس الذي يجب ان نعيه جيدا في نهاية الامر ، هو ان الحضارة كالحرية «كل» لا يتجزأ ، فكما لا نستطيع ان ناخذ الحرية السياسية دون الحرية الاقتصادية ، لا نستطيع ان ناخذ من الحضارة الماكينات والآلات الكهربية ونترك الفكر والادب والفن .

والتفت رأس طه حسين ناحيتي ، وقال :

ـ قل لهم لا تخافوا على التراث فهو لا يحتاج الى خوفكم . ان تفاعل الفرنسيين مع الينابيع اليونانية والرومانية فـي عصر النهضة ، اثمر نموذجا فرنسيا مختلفا عن النموذج الايطالـي او الالماني او الانجليزي . كذلك فان تفاعل الامريكيين مع الثقافة الاوروبية بفروعهـا المختلفة التي حملوها معهـم كمهاجرين ، وخصوصا الثقافة الانجليزية ، اثمرت نموذجا امريكيا مختلفا كل الاختلاف . وهكذا ، فان تفاعلنا الحضاري مع الغرب ، سوف يثمر مع الانفتاح الخالي من العقد ومركبات النقص نموذجا مصريا عربيا اصيلا . ولكن لا تضيفوا الـى عناصر التمزق الفـردي والاجتماعي والحضاري عنصرا جديدا حين تفصلوا بين شقـي الحضارة المتلازمين : المادة والروح ، الآلة والفكر ، الماكينـة والثقافة .

● من أهم المعارك التي خضتموها في حياتكم الادبية ، تلك المعركة التي قامت بينكم من جانب ، والعقاد من جانب آخر ، واتخذت عنوانا عاما هو «الاثينيون والسكسونيون» وذلك في أوائل عام ١٩٣٣ وقد كان منبركم هو مجلة «الرسالة» ومنبر العقاد هو جريدة «الجهاد» . والمعركة في واقع الامر كانت بين اتجاهين في

الثقافة المصرية : الاتجاه الفرنسي ، والاتجاه الانجليزي . غير أن المعركة توقفت فجأة دون الوصول الى نتائج حاسمة . فما هي في رايكم ، المصادر الموضوعية للمعركة ، ولماذا توقفت ؟

ـ لست افهم ماذا تقصد بكلمة الموضوعية هنا ، لقد تعلمت في فرنسا ، وتعلم العقاد اللغة الانجليزية وبالتالي ثقافتها . كانت معركة مفيدة فقد ابرز العقاد خير ما في الثقافـــة الانجليزية ، وحاولت بقدر ما استطيع ان ابرز خير ما في الثقافة الفرنسية ، ويبدو لي الان ان العقاد انتصر ، اذا صح تقديرك لسيادة الانجليزية على اركان الثقافة المصرية في الوقت الحاضر . ولكن المشكلة في جوهرها الاعمق ، تظل قائمة : هل كنا نفتش اكثر اذا كان اللواء معقودا للفرنسية ام ان حظنا من الانجليزية جاء اوفر . الموضوع يستحق مواصلة الدرس والمقارنة بين حال الثقافة في فرنســـا وحالها في انجلترا وامريكا والهند ، وبين حال الثقافة في مصر والعراق والسودان وحالها في الجزائر وتونس والمغرب .

بعيدا عن السياسة واسبابها التي تشكل ظروف سيادة احدى الثقافات قلت بالامس واقول اليوم وربما غدا ان الثقافة الفرنسية اكثر رقيا في مضمار الحضارة ، ولعل اصول القبائل الهمجية التي كونت الانجلو سكسون لا زالت كامنة في الثقافتين الالمانية والانجليزية وقد ورثتهما على نحو اسوا واكثر خشونة الولايات المتحـــدة الامريكية .

لا مفر من العودة الى «النقد» . وربما كان اهتمامي الشخصي هو مصدر ذلك الالحاح . وربما كانت المساهمة الكبرى لطه حسين هي المصدر ، فهو بالنســـبة لي «ناقد» اولا واخيرا . قلت له :

● من «ذكرى ابي العلاء» الى «تجديد ذكرى ابي العلاء» الى

«ابي العلاء في سجنه» يتضح لنا ان الباحث الادبي في هذه الكتب الثلاثة يكاد يستخدم منهجا موحدا في رؤية آثار ابي العلاء ، لكنه منهج مغاير للنقد الوضعي او نقد النصوص . ان هذا المنهج الاخير بالرغم من كل ما يمكن أن يوصف به من انه انطباعي او تأثري ، فانه يعتمد اولا واخيرا على حقيقة موضوعية هي النص نفسه أما المنهج المتبع في تقويمكم لآثار ابي العلاء ، فانه يبدو كما لو كان قائما على علاقة شخصية تربطكم بهذا الشاعر الفيلسوف (هنا قال الدكتور طه حسين : من الافضل ان نقول «المتفلسف») . ما رأيكم في هذه الملاحظة ، اذا وافقتم على صحتها ؟

هز رأسه وضم شفتيه وهو يجيب :

ـ الملاحظة صحيحة .

● لا تزال قضية «في الشعر الجاهلي» في اذهان جيلنا على الاقل ، علامة مضيئة للطريق الى علاقة الادب بالسياسة من ناحية ، وعلاقته بمقدسات المجتمع من ناحية أخرى . وبغض النظر من الموضوع الخاص الذي اثاره «في الشعر الجاهلي» ، فان ارتباط الادب بالسياسة والقيم الاجتماعية قضية مثارة دائما .. فماذا تراه من حدود بين هذه الاطراف ؟

ـ لا شك عندي في علاقة الادب بالسياسة ، ولكنكم تبالغون احيانا في تصور وتصوير هذه العلاقة . انكم تكتفون احيانا بسطوح الاشياء من بعيد فترون الخطوط كلها مستقيمة وان كونت فيما بينها المثلثات والمربعات والمستطيلات والمتوازيات . ولكنكم لا ترون غالبا المنحنيات والمنعطفات والمتعرجات . ولنمسك باطراف واقعة محددة باتت معروفة للجميع ، هي قضية كتاب «في الشعـــر

الجاهلي» . من وقف الى جانبي والى جانب الكتاب في الصحافة ومجلس النواب والجامعة ؟ انني عملت ، كما تعرف ، وزيرا في حكومة الوفد الاخيرة . ولا اشك لحظة واحدة في ان الوفـــد استقطب الغالبية العظمى من المصريين ، رغم الاخطاء والنواقص. ولكن هذا كله لا ينفي الحقيقة خارج التاريخ ، فقد هاجم الوفديون كتابي هجوما شديدا ، بادر بعضهم وشارك البعض الآخر في حركة الاستعداء الواسعة ضدي ، استعداء الجماهير والسلطة الحاكمة سواء بسواء . بينما وقف معي من تسمونهم بأبناء الارستقراطية كعبد الخالق ثروت .

هل معنى ذلك ان كتابي كان يخدم ــ سياسيا ــ الطبقـــة القليلة العدد ، حتى يبرر ذلك هجوم الحزب الشعبي ؟

لا اظن ، وانما تكمن المفارقة اصلا في انخفاض مستوى الوعي والثقافة عند حزب الوفد (قاطع طه حسين نفسه قائلا : دعك من البلاغة والخطابة والكفاح والوطنية) . كان اقطاب هذا الحزب هم الذين يفصلون بين الثقافة والسياسة ، او هم يفهمون العلاقـــة بينهما فهما غوغائيا ، فما دامت الاغلبية ضد الكتاب لانه يمس في وهمهم المقدسات، فانهم ايضا ضده. بينما كان المثقفون الحقيقيون ينتمون اجتماعيا الى فئة الملاك الكبار وسياسيا الى حزب الامة فالاحرار الدستوريين . تعلموا في اوروبا ــ وخاصة في فرنسا ــ فاحترموا الثقافة لذاتها ، واحترموا العقل . وهكذا وقفوا الى جانب كتابي والى جانبي .

اليس للكتاب ومؤلفه اهدافا سياسية واجتماعية مضمرة في ثنايا التحليل الفني والتاريخي ؟ نعم ، انه موقف واضح الى جانب

العقل ، موقف معاد للمسلمات ، موقف ابعد ما يكون عن التعاطف مع السلف .

هل هذا الموقف يدعم سلطة الملاك الزراعيين الكبار واصحاب البنوك ، ام هو يخدم الشعب ؟

اجيبوا انتم ، ولكن احذروا في قراءة التاريخ معادلات الجبر والهندسة والحساب ، فالادب له علاقة بالسياسة ولكن السياسة لا علاقة لها بالرياضة . لقد انصفني اناس شاركوني عشق الثقافة واحترام العقل ولم اشاركهم اصالة المنبت ولا زرقة الدم ، ووقف ضدي اناس اشاركهم كل شيء ، فيما عدا التخلف وتملق غرائز الغوغاء .

الثقافة ، آدابها وفنونها وقوانينها وقيمها ، مرتبطة بالسياسة والمجتمع كاوثق ما يكون الارتباط ، ولكنه ليس ارتباطا سطحيا ولا ميكانيكيا باية حال . انه ارتباط مقصود وغير مقصود في آن ، يعيه الاديب في عمومياته كالمبادىء العامة ولا يعيه في التفاصيل، المنبت الاجتماعي لا يلزم الاديب بفكر هذا الاصل .. فقد يكون الكاتب من عائلة ارستقراطية وفكره شعبيا ، والعكس ايضـــــا صحيح . فهناك ادباء نبتوا في صفوف الشعب ولكنهم يفكرون وينشئون ادبا ارستقراطيا . هذه سيرة العقاد مثلا . مادة الادب ايضا لا تلزم الاديب بفكر ما ، فقد تكون حياة القصور هي مادة التمثيلية والمؤلف شعبيا ، والعكس صحيح اذ ربما كانت هذه المادة مستوحاة من حياة الاكواخ وبؤس الفقراء والمؤلف ارستقراطيا . ثقافة الكاتب ايضا ، ربما كان مصدرها السوربون او اكسفورد او هارفارد ، ولكنه كاتب شعبي ، وربما كان مصدرها الازهر والكاتب من اعداء الشعب .

احذروا التبسيط المخل والقياس الميسور والتقويم التعسف، وارصدوا ردود الافعال الطويلة الاجل والتفسير المحدودة باللحظة العابرة والبيئة الضيقة .

● اعترض بعض النقاد على تطبيق منهج الشك الديكارتي على شخصية فنية معروفة كشخصية المتنبي في كتابكم «مع المتنبي» فما تعليقكم على مثل هذا الرأي ؟

ـ يساورني الشك في استقبالكم لكلمة «الشك» التي وردت في كتابي «في الشعر الجاهلي» بمعنى بعيد عما كان يجول في خاطري عند اختيار هذا اللفظ ، كما يساورني الشك في تلقيكم معنى الشك عند ديكارت . لا باس من ان اكرر انني قصدت التمحيص على ضوء العقل وعدم التسليم الاعمى بما رواه الاولون واخبرنا به السلف . هذا الكلام مجرد منهج يقبل التطبيق على الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي والشعر الحديث سواء بسواء . واذا كان الانتحال هو ثمرة هذا المنهج في التطبيق على الشعر الجاهلي ، فان علاقة المتنبي بسيف الدولة موضوع شائق ويخضع لكثير من مقتضيات المنهج نفسه .

من الاباطيل «العلمية» التي يشيعها الجهلاء ان لكل موضوع منهجه ، فالشعر الرمزي يحتاج الى منهج تفسيري ، والقصة النفسية تحتاج الى تحليل فرويدي ، والتمثيلية الاجتماعية تحتاج الى تاويل اجتماعي والتاريخية تحتاج الى تعليل تاريخي ، وهكذا.

ليس هذا صحيحا ، والصحيح ان لا علاقة المادة بمنهج البحث او النقد ، فكل مادة قابلة لاكتشاف مختلف المناهج . ولكن هناك منهجا تثبت صحة استخدامه فيغتني بمادة البحث ومجموع

تجاربه عليها وشحذ الادوات التي خبرها ، وهناك منهج آخر لا يصمد للتطبيق ، حتى وان نجح مصادفة ذات مرة على موضوع ما .. فليس الموضوع هو السبب .

● بعد وفاة شوقي عام ١٩٣٢ اثيرت مشكلة امارة الشعر ، وقد قيل ان سيادتكم قد رشحتم العراق لهذه الامارة كما كتب الزيات في الرسالة ١٥ يناير ــ كانون الثاني ١٩٣٣ (دون تحديد من هو المقصود : الزهاوي ام الرصافي) ، ثم جاء خطابكم في حفل تكريم العقاد (المنشور بالجهاد في ٢٩ ابريل ــ نيسان ١٩٣٤) يقول «ان الشعراء يستطيعون ان يدفعوا لواء الشعر الى العقاد بعد ان مات حافظ وشوقي فهو يستطيع ان يحمل هذا اللواء مرفوعــــا منشورا وان يحتفظ لمصر بمكانتها في الشعر الحديث» . ثم نشرت مجلة «الحديث» (مجلد ٤٨ ، سنة ١٩٣٧) نص رسالة شخصية منك الى خليل مطران جاء فيها ما نصه «انك زعيم الشعر العربي المعاصر ، واستاذ الشعراء العرب المعاصرين» ... فما هو تفسيركم لذلك اذا كانت الوقائع صحيحة ، وفي فترة تاريخية قصيرة !

وتنهد طه حسين عميقا ، ثم قال :

ــ الوقائع صحيحة ، فيما عدا المنسوب الى الزيات فــــي الرسالة فانا لست مسئولا عنه . وما التناقض بين تخصيص هذه المكانة التي اشرت اليها ، للعقاد بالنسبة للشعر المصري ، والمكانة التي اشرت اليها لمطران بالنسبة للشعر العربــــي المعاصر ؟ ليس ثمة تناقض ، ففي زمن العقاد لم يكن هناك سواه افضل منه ، ولكن فضل مطران على العقاد وغيره من المجددين لا يحتاج الى بيان او شهادة .

* * *

الجامعة هي حبه الاول والاخير ، هكذا قالت لي السيدة العظيمة زوجته التي يراها نورا وملاك رحمة . وهكذا قال لي تلاميذه واصدقاؤه الاقربون ، انه يجد نفسه في الجامعة اكثر مما يجدها في اي شيء آخر . لذلك لا يقاس انتاجه بحصيلة مؤلفاته المنشورة ، وانما الى جانبها ، بتلك الاجيال المتعاقبة من طلابه الذين اصبحوا اساتذة وعلماء . قلت للعميد ، وهذا اقرب الالقاب الى قلبه ، فعمادة كلية الآداب هي مرقا الروح ومعبد العقل :

● ظل العمل في الجامعة مرافقا لجميع اعمالكم الاخرى ، في الصحافة او السياسة او الادب ، فهل ترون الجامعة في بلادنا صالحة لان تكون «قيادة فكرية» في المجتمع يجدر بالمفكر ان يتخذ منها منبرا لفكره ، ام ان اصراركم على العودة اليها بين الحين والآخر كان له سبب آخر ؟

ـ الجامعة ؟ لا يعرفونها الان . الجامعة كانت ، اما الان فلست ادري ، هل نحن الذين تخلفنا ام ان ثمة شيئا خطأ قد حدث ، الجامعة كانت في زماننا محرابا للفكر، كانت قدس اقداس الحرية، اسمع الان انها تحولت الى شيء شبيه بالمدارس الثانوية او المدارس المهنية المتوسطة ، دعنا من هذا الموضوع ، ساعدهم الله .

لم اساله عمن يقصد، تفصد جبينه بحبات صغيرة من العرق، وتصورت انني تجاهلت الموضوع كليا حين بادرته بالسؤال :

● مررتم في حياتكم السياسية بعدة مراحل واضحة ، منها انضمامكم في فترة باكرة الى حزب الاحرار الدستوريين ، ومنها انضمامكم عام ١٩٢٣ الى صفوف حزب الوفد . . فهل لكم ان تفسروا لنا هذا التطور ؟ وما رأيكم في اشتغال الاديب عموما بالسياسة ؟

زفر بحرقة واستقدار تحوي نصف استدارة اشبه بلفتة كاملة بالعنق ، وخرجت من حلقه الكلمات متقطعة :

ـ لماذا تسميه «تطورا» ؟ كان مقر الاحرار الدستوريين ناديا ثقافيا رفيعا فالتحقت به ، وكانت بيني وبين الوفد اشياء واشياء منذ معركة «في الشعر الجاهلي» . ولاحظت على الاحـــرار الدستوريين في كفاحهم الوطني طراوة ابناء الذوات وفي سلوكهم السياسي اجحافا بحقوق الفقراء . بينما كان الوفد اكثر صلابة وتعبيرا عن مطامح الجموع ، فاليت على نفسي ان اطوي صفحة وافتح اخرى اكثر اتساقا مع ضميري . الضمير هو المهم . الاديب والسياسة ؟ منذ متى كانت مشكلة . جميع الادباء في جميع انحاء العالم يشتغلون بالسياسة ويدخلون الاحزاب ويعملون احيانـــا بالسلطة التنفيذية او التشريعية . الاديب مواطن كبقية المواطنين وليس نباتا شيطانيا ولم يتخرج في مستشفى الامراض العقلية .

● اشتغال الاديب بالسياسة يثير عند الاجيال المعاصرة قضية دائمة هي قضية الالتزام ، وهذه الاجيال تفرق بين الالتزام بمعناه الوجودي ـ السارتري خصوصا ـ والالتزام بمعناه الاشتراكي والالتزام بمعناه العام .. فمن اي الزوايا تنظرون الى هذه القضية، وما هي النتائج التي تصلون اليها ؟

ـ لست احب للادب ان يكون لافتة سياسية ، وينبغي الحذر من الخلط بين اشتغال الاديب بالسياسة كاي مواطن، وبين تحويل ادبه الى دعاية سياسية . للادب ردود فعله السياسية واصداؤه الاجتماعية ، دون تخطيط او توجيه او الزام ، فالضمير الفردي الحر هو قيمة القيم في حياة الاديب وادبه .

● اذا كتب احدهم عملا ضد الشعب بضمير مرتاح ، فمـــا رأيــك ؟

ـ يصبح كاذبا لو فعل العكس ، والكذب لا يثمر فنا . ولكن عداء الشعب ايضا كذب على النفس وتضليل لها وللآخرين ، فهو لا يثمر فنا . فرضك نظري لا معنى له . الفن العظيم ، الفـــن الحقيقي ، لنقل الفن فحسب ، هو لخير الانسانية بالضرورة .

● تواجه مصر منذ عام ١٩٥٢ تجربة جديدة في مجال الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، تخطىء وتصيب ، تنفع وتضر ، ولكنها تتميز بمرحلتين هامتين : الاولى هي مرحلة الثورة الوطنية او الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، والاخرى هي مرحلة الثورة الاجتماعية . وقد كان لجيلكم شرف النضال الثوري بين عامـــي ١٩١٩ و١٩٥٢ فما هو الدور الذي تتصورون ان هذا الجيل قادر على ادائه في المرحلة الجديدة ؟

تحددت ملامح النفور في وجه طه حسين الطيب لاول مرة . تحركت وجنتاه وجبهته ببطء شديد وتراءت لي ذقنه هي الاخرى تتحرك في صيغة مفادها النفور ، قال كمن يحسم امرا :

ـ انت تتكلم لتتهم . شعارات شعارات . البلد كما اشعر به لا يزال في مرحلة التحرير ، من اسرائيل هذه المرة . والبلد كما احس به لا يزال متخلفا وفقيرا ومريضا وجاهلا . نسبة الاميين كما هي ، نسبة انصاف المتعلمين كما هي ، نسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج . يخيل الي ان ما كافحنا من اجله ، هـو نفسه لا زال يحتاج الى كفاحكم وكفاح الاجيال المقبلة بعدكم . قلت لك منذ قليل انني في آخر ايامي ، اودعكم بكثير من الالم وقليل

من الامل . اكرر لك العبارة مرة اخرى ، اين ابناء جيلي ؟ لقد عشت لسوء الحظ بعدهم ، ثق ان جميعهم ماتوا وفي قلوبهم حسرة ، مرارة سلامة موسى كان يجيد اخفائها وراء محبته الغامرة للبشر وعشقه الصوفي لمصر وايمانه الرومانتيكي بالمستقبل ، خيبة العقاد كان يجيد اخفاءها وراء كبريائه العتيدة واحترامه لنفسه وحرصه الشديد على كرامته . كافح العقاد من اجل الحرية ، وكافح سلامة موسى من اجل الاشتراكية ، فهل انجزتم هذه او تلك حتى تقرروا ان دورنا قد انتهى او تتفضلوا علينا بالبحث لنا عن دور . ما هذا الكلام . وعمن تتكلمون ؟ لم يبق احد سواي وانا رجل في الظل اطوي اوراقي وسامضي قريبا . حتى منصور مات .

كان حزنه طاغيا وعميقا ولاهبا حتى انني كدت ابكي . حتى الاعتذار عن السؤال لم احاوله ، كان الموقف شائكا وصعبا وخطرا، فآثرت لاشعوريا الاستمرار .

● يستقبل الشباب الجديد توجيهاتكم استقبالا حارا ، لكنه يتوقف طويلا عند اتهامكم له بالتقصير في حق نفسه وحق امته من ناحية تكوينه الفكري . . فما هي هذه المظاهر — على وجه التحديد — التي ترونها أوضح دليل على هذا التقصير ؟

بهدوء شديد أجاب :

— هل بيننا وبينكم ثار ام اننا نغار منكم ؟ لماذا لا تصدقون انكم ومن بعدكم اقل ثقافة ممن جاءوا قبلكم ؟ هذه ملاحظة لا تقتصر على النخبة ، وانما هي تشمل المجتمع باسره ، فالخط البياني يسجل هبوطا حتى لا اقول انحطاطا ، انتم لا تجيدون لغة امتكم

ولا لغات الامم الاخرى ، ولم تقراوا تراثكم ، ولا تراث الامم الاخرى . يظهر ذلك بوضوح في ولعكم باستخدام العامية وشغفكم بالعمل في الصحافة والاذاعة وازوراركم عن التوجه الى اوروبا للتعلم . انتم تشتغلون بالسياسة اكثر مما تشتغلون بالثقافة ، وانتم تشتغلون بالسياسة دون فكر سياسي .

● اذا كان لكل جيل قيمه الجديدة الخاصة به ، فهل ترون أن للاجيال المعاصرة قيمها الجديدة التي ربما تناقضت مع قيم جيلكم ، وما هي هذه القيم وتلك ؟

ــ انت تلف وتدور . كانت قيمنا هي العدل والحرية ، وكنا ضد الاستعمار الاجنبي والاستبداد الداخلي ، فما هي قيمكم ؟

ابتسمت وانا اقول :

● القيم ذاتها ، ولكن ما هي الاعمال الادبية التي لفتت نظركم في انتاج الاجيال التالية لجيلكم في حقل الرواية والمسرح والشعر؟ وما هي الاسماء التي ترون انها قادرة على القيام بعبء القيادة الفكرية في المرحلة الراهنة ؟

ــ كنت اتابع نجيب محفوظ حتى بدا يحاكي الاوروبيين المحدثين فلم اعد افهمه ، كما لم افهم «يا طالع الشجرة» لتوفيق الحكيم . ابحثوا عن انفسكم قبل ان تشغلوا بالكم بالبحث عن قيادة . انتم اشد ما تكونون احتياجا للبحث في اعماق النفس ، ثم تدبروا امركم .

***

فوجيء طه حسين بانني صمت وانني رحت اتمتم خجـلا بكلمات شكر متعثرة . كان قلبي الواجف لا يكاد يصدق ، انني امضيت كل هذا الوقت مع احد عظماء الضمير البشري في بلادي.

وراحت صوره تتداخل في مخيلتي من جديد : الفتـى الضرير ، الازهر ، الجامعـة الاهلية ، السوربون ، الاحـزاب والعرش والحكومة ، شريط باهر لحياة آخر العمالقة في فكرنا الادبي الحديث . ولكن مخيلتي التقطت عبر اكثر من اربعين ساعة طيلة الاسابيع الثلاثة الماضية ، ان الرجل العظيم يطيل التامـل داخله اكثر من اهتمامه بما يدور خارجه .

كان ينسحب الى الداخل اكثر فاكثر ..

قاطع مخيلتي بقوله :

ـ هل تعتقد ان هذا الكلام يفيد ام انه يثير الياس ؟

كان صوتي يتهدج وانا اجيب :

● كلامك ، يا سيدي ، جزء لا يتجزا من الضمير العام .

قهقه عاليا ثم اشاح بوجهه مستطردا :

ـ وهل ستنشر هذا كله ؟ سوف يغضب الكثيرين فيما اظن.

● رغم ما سببته لك يا سيدي من ارهاق تتضاءل الى جانبه كلمات الشكر ، فاني على استعداد في اي وقت لاتلوه على مسامعك بعد صياغته النهائية .

كانت الصياغة هي اشق المراحل ، فقد سودت ما يربو على المائتي صفحة، كنت الهث احيانا وانا اسجل افكار طه حسين اكثر مما اسجل الفاظه ، واحيانا اخرى كان لا بد من ربط المقاطع بعضها ببعض حيث ان فجوات الصمت والقفز من فكرة الى اخرى تسبب في مساحات خالية كثيرة .

بعض الاجوبة كان يحتاج الى تعليق او نقاش او انه يستحدث اسئلة جديدة ، مع هذا كان المرض يتحدانا معا ، يحرجني حينا، ويرجيء الفكرة حينا آخر ، كنت وطه حسين في سباق غريب مع الزمن ، سقطت مني التافه اشياء فيها ما يثير التامل ويدعو الى اعادة النظر وفيها ما يستوجب التفكير الحي الفعال .

وفيها قيل ذلك وبعده طه حسين : **قطعة حية من تاريخنا توشك على السفر .**

من يدري ؟ فربما كانت هذه كلماته الاخيرة ، لنا وللاجيال المقبلة من بعدنا .

من يدري ؟ واتجهت بشعور لا يقاوم اقبل الجبهة التي واصلت العطاء حتى يومنا ، ولم افهم ما تمتم به طه حسين ، ولكن صداه المؤثر ظل يأكل القلب وصورته تغطي المرئيات وسط اكليل من الدموع بخلت بها عيناي والسيارة تطوي بي شارع الهرم، عائدا من «رامتان» .. وربما لآخر مرة .

القاهرة ١٩٧٢ — ١٩٧٣

خـــاتمة

٣ أسئلة الى نقاد طه حسين

في حياة طه حسين وفكره بعض «الثغرات» التي تحتاج الى توقف نقاده ومؤرخيه وقفات موضوعية متأنية . ذلك ان هـــذه الثغرات لا تتسع حتى لتصبح «خطايا» ولا تضيق حتى تمسي وكأنها لم تكن . انها علامات قد تضيء لنا بعض الزوايا التي أهملها الكثيرون من مريدي الراحل العظيم في حياته ، ولا اقل مــن الالتفات اليها بعد وفاته ، لعلها بالحوار تهدينا الى نقاط جديدة تستحق التأمل في تاريخنا الثقافي .

● مثلا : تلك الفترة التي انتج فيها واحدا من اعظم وابقى مؤلفاته وهو كتاب «في الشعر الجاهلي» . لقد كان طه حسين آنذاك مرتبطا برجال «الصفوة» من بقايا حزب الامة ، وهم مــن كبار ملاك الاراضي الذين اتيح لبعضهم ان يتلقى العلم في اوروبا وخاصة في فرنسا . والمعروف أن عبد الخالق ثروت «باشا» قد

دافع عن طه حسين وكتابه دفاعا مجيدا في البرلمان ، بينما تصدت للهجوم بعض الرموز العظيمة في حزب الوفد . وهو حزب الثورة الوطنية الديمقراطية في ذلك الوقت . هل يكون ذلك سببا في هذه المفارقة الغريبة بين الانتماء الحقيقي لطه حسين ، فكريا واجتماعيا ، الى الشعب وصلاته «الثقافية» بالصفوة . لقد ظل يكتب في جرائد الاقليات ، وخاصة «السياسة» الاسبوعية ، التي كان يصدرها الاحرار الدستوريون زمنا طويلا ، فهل تكون عقدة «في الشعر الجاهلي» قد تسببت في انزوائه عن الحزب الذي نفترض انه يلتقي معه بالقلب والعقل ؟ ولماذا اتخذ الوفد هذا الموقف في ذلك الوقت ؟ الا يضطرنا ذلك الى تصور تحليلي أكثر عمقا ، لحركة الفكر والمجتمع في تاريخ مصر الحديث .. فلا يجوز — مثلا — القول بصورة ميكانيكية ان تنظيم القاعدة الديموقراطية العريضة ، يتبنى بالضرورة القيم والافكار الديموقراطية . وانما يتوجب علينا النظر الى «خصوصية الظاهرة» التي تجعل حزب الطبقة المتوسطة الناشئة في بلد متخلف ، يفتح النار على أول ثورة عقلية تمس «قدس اقداس القيم الموروثة» من قريب أو من بعيد. بينما يتولى حزب الاقليات شبه الاقطاعية ، الدفاع عن الحرية والعقل ؟ أقول لنتامل فقط .

كذلك الا يمكن القول بأن اقتراب طه حسين المبكر من هذه «الصفوة الارستقراطية المثقفة» ظل بذرة كامنة في تكوينه حتى بعد اتصاله بحزب الوفد وانفصاله عن احزاب كبار الملاك ، لم أثمرت هذه البذرة بعض «القيم الجمالية» التي وقفت بطه حسين عند نهاية الاربعينات وبداية الخمسينات موقف «المعارضة» من حركة الفكر الثوري البارز آنذاك في حياتنا الادبية ؟

مرة اخرى ، انني أتساءل ، فقط .

● النقطة الثانية هي اسلوب طه حسين . ان هذا الاسلوب الفاتن للوهلة الاولى ، هو من اكثر العناصر في ادب الراحل العظيم مثارا للجدل ، او ينبغي ان يكون كذلك ، ذلك ان انطباعـــــي الشخصي هو ان الايقاع المنغم في هذا الاسلوب، اقرب الى الترنيم والترتيل ، وهما البديل الاكثر معاصرة للسجع القديم ، ولكنــــه ليس اسلوبا «حديثا» باية حال . ذلك ان «حلاوة الموسيقى» تطغى احيانا على سياق البحث والدراسة الادبية ، وقد تصل بالتداعي الى «مفارق طرق» لم يقصد الكاتب ان يصل اليها . لقد كان من حظي ان استمع الى محاضرات طه حسين في الجامعة ، واشعر الان بان ثمة علاقة بين صوته الرخيم واسلوبه في التعبير، واضيف احتياجه الى الاملاء وبعده من امساك القلم . ان هذا التكويــــن الذاتي قد تضافر مع الحصاد اللغوي الرائع الذي جناه طه حسين من الازهر ، فالعر معجمه اللغوي الوفير وترادفاته اللفظية التي لا تنتهي ، وهي احيانا ليست ترادف الكلمة بالكلمة وانما الجملة بالجملة والفقرة بالفقرة . وهو منهج الشارح والمعلم ، اكثر منــه منهج الباحث والناقد . ولا شك ان طه حسين قد تأثر باللغـــة الفرنسية تأثرا واضحا ، ولكنه كان قادرا على تعريب التعبيــــر الفرنسي ، بحيث يكتسب بريق الابتكار جنبا الى جنب مع طريقته هو في تجسيد المعنى .

ان طه حسين في هذا الصدد ، وقف في منتصف الطريق، الذي جرؤ كاتب آخر كسلامة موسى ان يقتحم مجاهله حتى النهاية فاحدث تغييرا بلاغيا حقيقيا في لغة الفكر الاجتماعي ، كما جرؤ كاتب آخر كتوفيق الحكيم على ان يحدث تغييرا جذريا في بلاغتنا على صعيد اللغة الفنية .

اما طه حسين ، فلم يتوقف عند أعتاب السلفيين من مشايخ الازهر ، ولم ينجز ثورة في مجال اللغة .. فهل يكون ذلك هو

السبب في انه حين نادى باصلاح اللغة العربية ، وبدأ يوقع بعض مقالاته هكذا «طاها» لم تتوفر له عناصر النجاح ، لانه فصل — غالبا — بين تصوره النظري للاصلاح ، بينما كانت تطبيقاته التي تفيض عفوية وجمالا في واد آخر ؟

انني ، فقط ، اتساءل .

● انني من عشاق كتابه «الايام» وما يسمى برواياته الادبية مثل «دعاء الكروان» و«شجرة البؤس» و«الحب الضائع» و«اديب» ومجموعة قصصه القصيرة «المعذبون في الارض» . ولكني — امانة مع النفس — اقول أن الجوهر الاجتماعي في هذه الاعمال هو الذي يجذبني اليها . . لقد استطاع طه حسين ان يضع ايدينا ، ببساطة رائقة ، على مأساة الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة في صعيد مصر ، وازمة المثقف الطالع من هذه الشريحة المسحوقة مع المجتمع الجديد من حوله ، سواء في القاهرة او في باريس . انها كتب اقرب الى المذكرات الشخصية ، ولكنها — في تقديري — ابعد ما تكون عن الاعمال الروائية ، حتى في مرحلتها التاريخية . يبقى محمد حسين هيكل ، ومن بعده توفيق الحكيم في «زينب» و«عودة الروح» هما الجسر «الفني» الذي ادى الى جيل نجيب محفوظ . اما اثر طه حسين في الرواية فيكاد يكون معدوما .

فهل يكون ذلك هو السبب في ان «نقد» طه حسين للرواية المصرية كان بعيدا في معظم الاحيان عن القيمة الحقيقية للعمل الفني ، فاعلى من شأن يوسف السباعي وثروت اباظه — على سبيل المثال — اعلاء مبالغا فيه ولا يدل على قامة طه حسين العالية الجبين ؟ انه في نقده الروائي مثلا يتوقف طويلا عند لغة الكاتب، ولا يتوقف لحظة عند البناء الجمالي والمضمون الاجتماعي . . أليست هناك صلة بين القدرة الفنية عند طه حسين على الخلق ،

ورؤياه النقدية لفن الرواية التي لا تثمر في ادبنا النقدي كثيراً ولا قليـلا ؟

وبعد ، فهذه الاسئلة الثلاثة مجرد نماذج لتساؤلات عديدة ، لا تقلل باية حال من القيمة الكبيرة — والباقية — لطه حسين في حياتنا الفكرية والادبية . ولكننا اعتقدنا أن نركز عند وفاة كبـار الادباء على المعاني الايجابية في انتاجهم واغفال أو تجاهل هـذه «الثغرات» التي ربما كان الحوار من حولها يكشف لنا من الكنوز المخبوءة اكثر كثيرا من الايجابيات المعروفة سلفاً .

١٠ — ١١ — ١٩٧٣

فهرست